

تقديم

في هذا العدد ثلاثة أقلام لشابات مبدعات يشير انتاجهن الى استعداد واعد في حقل الابداع الأدبي من صنف المرأة خاصة. وذلك يبشر بخير ومستقبل مرموق لا لهن فقط وإنما للمرأة عموما.

قلنا مدنا لاسا عشنا عقودا سابقة كان فيها الإبداع النسائي منعزلا او نبيلا يكاد يكون من باب الصدف او الفلتات. وكان ذلك ناتجا عن علة قديمة تمثل كتبنا قاسيا موروثة من عصور سابقة.

وعندما بدأت المرأة تتعلم وتكتب كانت عوامل الاحباط أكثر من عوامل التشجيع للمرأة على الابداع والكتابة. وحتى اللاتي كتب لهن البداية في الكتابة فإن أغلبهن ينقطعن عنها بعد الزواج. ولا تكشف سرا اذا قلنا : ان البعض منهن انتهى بهن الامر الى الطلاق أو العيش في الصراع المرير. ولا نستثني من ذلك الا القليل جدا.

واذا عدت بعض المزايا لنا في القصة فإن من أهمها - بقطع النظر عن الناحية الفنية - أن هذا النادي كان مجالا رحبا لاقتبال الكثير من الكاتبات التونسيات وبروزهن في فن القص لما وجدنه من تشجيع وبعد عن الخلفيات. وقد جاء في تقديم المجموعة القصصية لهند عزوز الصادرة سنة 1969 ما يلي : «..فقد حان الوقت لتبأشر المرأة نفسها تحليل تلك المشاكل (مشاكل المرأة) وتصوير مختلف الاحاسيس والعواطف التي هي أقدر من الرجل على طرقها وتحليلها.. ولعل النهضة التي ستمثل كل المجتمعات في مختلف الاقطار ستساعد كثيرا على أن تتدارك المرأة الشرقية ما كان ينقصها ويحول بينها وبين اكتمالها .. وفي تونس أصبحنا نلمس رغبة ملحة من فتياتنا في الاقبال على ميدان الانتاج خاصة في ميدان القصة (...) (1).

(1) في الدرب الطويل من 10.

وأمام التطور السريع والاصلاحات الجذرية التي نالتها المرأة وبصفة أخص وأعم منذ عهد التحول والتغيير «أصبح الانتاج النسائي يتصاعد في مختلف الميادين من الاقتصاد والتقنية الى الابداع الادبي والفني.

ولعل ما تضمنه هذا العدد من انتاج المرأة يقيم الدليل ويفتح الافاق أكثر فأكثر انتاجا وابداعا بعيدا عن مركبات النقص وعقد الكبت وعراقيل التقصير.

قصص



بوراي عجينة

رَقَّتْ

النفس هذا المساء، دَقَّتْ،
ذابت عشقا وحنينا، لانت
حتى لكأنها عود ثقاب يكاد
يحترق، أَوْ جُرْمٌ سَمَاوِيٌّ فِي أَعْمَاقِ السَّمَاءِ
مَا فَتَى صَابِرًا عَلَى السَّكُونِ دَهْوَرًا، وَهِيَ إِنَّهُ
يُوشِكُ أَنْ يَنْفَجِرَ، لِيَتَلَاشَى شَطَايَا وَشَهَبَا
ضَائِعَةً فِي أَرْجَاءِ الْكَوْنِ.

فَاهِكْهُ الْحَدِيثُ

فَرَّتْ النَّفْسُ مِنْ قَضْبَانِ الْغُرْفِ
الضَّيِّقَةِ وَالْجِدْرَانِ السَّمِيكَةِ وَارْتَعَتْ فِي
أَحْضَانِ شَارِعٍ مَزْدَحَمٍ بِالْقُرْبَاءِ، سَاعِيَةً تَحْوَ قُدْرَهَا الْجَبَّارَ الْمُحْتَوِمَ، يَجْذِبُهَا إِلَيْهِ
مَغْنَطِيسٌ قَوِيٌّ سَيَكُونُ صَوْتُهَا فِي طَرَفِهِ وَصَوْتِي فِي طَرَفِهِ الْآخَرِ.

سَانَعِمُ فِي نَهَايَةِ هَذَا الْأَسْبُوعِ بِتَغْمَانِهَا الْقَادِمَةِ إِلَيَّ مِنْ بَعِيدٍ نَبْعُ حَسَنِ
وَبَهَاءٍ، سَتَفَرِّقُ أَذْنَايَ الظَّامِئَتَانِ الْعَاشِقَتَانِ فِي سَيُولِ هَوَاتِفِهَا، وَتَتَدَفَّقُ مِنِّي
يَنَابِيعُ الْفَرَحِ الْبَكْرِ، وَتَبْتَلُ ضُلُوعِي الَّتِي ظَلَّتْ أَيَّامًا وَلِيَالِي مَقْرُورَةً ظَامِئَةً
تَحْنُ إِلَيْهَا حَنِينًا.

جَاهَدْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَنْسَاهَا فَلَمْ أَقْدِرْ !
اِنْتَهَرْتُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ حَيَاتِي مِثْلَمَا فَعَلْتُ مَعَ أُخْرِيَّاتٍ فَلَمْ تَخْرُجْ !
طَرَدْتُ طَيْفَهَا مِنْ مَنَامِي وَبِقِطْعَتِي فَلَمْ أَفْلَحْ !
تَلَهَّيْتُ عَنْهَا بِالْعَمَلِ وَالسَّفَرِ وَالْحُبِّ الْعَابِرِ فَمَا سَلَوْتُ !
ضَجَّ بِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى فَلَمْ تَلَحْ !
تَاقَتْ النَّفْسُ إِلَيْهَا فَلَمْ تَأْتِ !
الْقَيْتُ بِنَفْسِي فِي الصَّخْبِ وَالزَّحَامِ وَالصَّمْتِ، قَرَأْتُ... نَمْتُ...

استيقظت ... لكن طيفها ظلّ ماثلاً أمام عينيّ أراه حيثما ألقُبُ وجهي... نُعومة،
وحلماً وسحراً لا يقاوم.

ها إنّ هاتف الشوق يناديني إليها دون أن أجرؤ على الرفض أو المقاومة
أو الانتظار، أسيرُ نحوها مكبلاً بقيود العشق متوثراً كالإعصار، مثلها كطفل
صغير ينتظر حلول صبيحة العيد، وقد طفت على سطح الذاكرة سويغات هناء
وود، كنّا لهونا فيها معاً مع الزمن الهارب، وجرينا خلفه، وهو يُسابقنا طائراً
مرحاً أو فراشة لاهية، بينما الفُضاء من حولنا عطر شفاف متدفق لا ينضب له
نبع.

أسرعُ الخطو لعلّي أراها ماثلة أمام عينيّ في الزحام مقبلة نحوي،
مشرعة الأحضان، صاحبة، ضاحكة، عريضة البسمات، أنشوية السير
والحركات... وأنظر حولي إلى الطرقات المزبحة بالناس لعلّي أراها. ويلقني
دوار خفيف، مضمخ بالأم الانتظار وحشة الانفراد والعزلة القاتلة.

أودُ أن أشم طيفها البعيد، أن أراه يطفو أمامي فجأة في خضمّ الزحام
ليبدّد جليد أيامي الرتيبة.

وأواصل السير صامتاً صاحب الأعماق، حائراً، مغيّباً النفس بهويتها
الآليف، وأنا أتخيل طيفها الرقيق - هناك في ضاحية من مدينة بعيدة - وهي
جالسة على أريكة تتصفح مجلة أو تقرّأ كتاباً، أو متكئة على السرير حاملة، أو
تمتّع البيت بلذيق نظراتها، غير عابئة بسمايات انتظاري المنبعثة جراحاً عميقة
تدفعني إلى موعد كانت قد حدّثته لي رسالتها الأخيرة والأقدار.

وأسعى نحو أسلاك رقيقة مثل نفس... وأندفع إلى سحر صوتها المنادي
من بعيد، لعلّي أظفر بلحظات معدودات سنسرقها من درب الزمن البطيء.

سألقي بنفسي في واحة صوتها الحبيب، ألوذ إليه من صحراء أيامي،
أنهل من نبراته العذبة الأنشوية الزلال حتى الارتواء.

وتعرج أجنحة خيالي في عوالم من الألفاظ والأسرار المخبأة، قد تكون
كنوزاً ثمينة، وقد تكون هباء منشوراً.

* * *

ويزداد اضطرابي، وأنا داخل غرفة زجاجية، أضع في جهازها الصغير

قطعاً معدنية صفراء ؛ وتَصَنَّتْ أذني إلى ما وراء السَّاعة، وأنا بين الأمل واليأس، أنتظر انتهاء دقات متتابعة بطيئة تَرْنُ في ضلوعي منبعثة من الطرف الآخر، تتأرجح على أوتارها روجي المعذبة... ويتوقف الرنين فأسمع صوتها فأدرك أنني ظفرت بعدُ بجنتي الموعودة : ألو... ألو!!

وأعرفها بنفسي، فتخبرني أنها كانت تنتظر هاتفي ؛ وأفرح للقائنا الأول عبر الأسلاك رغم ابتعاد جسدينا ؛ ونشرع في السير معاً في درب واحد من الحديث عبر الهواء.

أطمئنهما على حالي، وتطمئنني على صحتها، ثم تتلاقى أصواتنا وتتزوج متشابكة في رحلة المناجاة.

تقول لي : لقد ناداني صوتك... أيقظني من إغفاءة قصيرة هادئة بعد يوم كامل من العمل المتعب، فارتجفت أوصالي لسماعك.

فأقول : أنا الآن في أمتع سويغات عِروِي، لقد شرع صوتك يبدد بعدُ قرأياي وصقيع عظامي المتلهفة إلى جوعات من حرارة جسدك.

وأضيف مقلها : تحدي... تكلمي... حدثيني، أريد أن أسمع صوتك، أخبريني بأي خبر، فكلي آذان صاغية.

ونسبح معاً في بخار من حديث : جاذ، مروح، قرأفرف علينا جداول من اللعبة الصاخبة حيناً، الصامتة حيناً آخر، مُضْمَعَةً بلذيق الأمنيات.

كائنات اثنان - كانا تائهين - جمعتهما الأقدار في هذا الكون الشاسع عبر خيط رقيق، فأخذتا يتناجيان بعبارات محملة عاطفة غامضة واضحة... كلمات قد تكون وفية وقد تكون مبهمة، لا ترسم أبداً كل ما يضطرم في النفس من مكنون الأفراح والأحزان والانتظار.

ثم ينسكب كلامي سيلاً جارفاً من العتاب، بلهجة أردتها مزيجاً من الجد والهزل، منخفضة النبرات قاسية بعض القسوة. وأهمس همساً حتى لا تتفطن إلى خصامنا العيون المهيطة بي، وهي تحاصر غرفتي الزجاجية الشفافة، ألومها على غيببتها الطويلة التي فَرَّتْ فيها، وتركتني تائها وحدي تحت وابل العذاب وأمطار الألم، وقطرات الهلاك تُساقط علي كل حين.

ولكنني أخاف أن ينقطع الجسر الممدود بيننا، فاهدئي من عتابي،

وأدعوها إلى مزيد من الحديث لآلتذ بصوتها الدافئ الحريري وأصبح سباحة في موجات بسمتها المرحة.

وعندما تغطي صوتي أرضية من الصدى المؤذن بانقطاع الحرارة عبر الأسلاك الرقيقة، أسرع إلى قطع أخرى من النقود أضعها في جوف الجهاز، فتتساقط الواحدة إثر الأخرى. وينساب حرير كلامها من جديد يدغدغ أنفاسي اللأهثة، وأنعم باعتذاراتها وهي تُعانق أصواتي وتشتبك بها أنهار حسن فياض.

وأسمعها تطمئنني بصوتها الأنثوي الرقيق الندي أن قلبها انفتح لي وانفلق على عشقي، لكن مشاغل الحياة تراكمت. وتسرُّ إلي أن قلبها يضطرب ويرتجف مثل فرخ حمام مبلل عند سماعها صوتي.

وتهدأ نفسي المضطربة، أرضاً عطشى فاجأها الغيث بعد طول انتظار، ويذوب اللُوم ويتبخّر العتاب، وأخلق من جديد في فضاء ترنيماتها تصلني وصلًا مؤنسا مرحًا.

وأغازلها فتبتسم وأناجيها فتطلب المزيد.

قلت : كم كان الزمن الذي قضيناه معا قصيرا متعيا، كنت مهموماً يخيل إلي أحيانا أن الحياة تسمى بنا نحو القضاء، وأدركت أنني لم أنعم من ملذات هذه الدنيا إلا بقدر ضئيل، حتى عرفتك فتبدلت أيامي، توقفت بعد تسكع وضياح بحثا عن أجساد حسناوات يلدغنني بحسنيين، ثم يمضين في سبيل حالهن غير مكترثات بوحديتي ؛ لقد توقفت الآن أمامك ولن أبزع مكاني.

كان الحزن يلغني، البسه ثوبا سميكاً خريفاً وشتاءً، أحاول أن أخفيه عن نفسي وعن عيون الآخرين بالجلوس في مقاهي المدينة، وارتياد حاناتها، وتصفح جرائد متعائلة الأوراق، والتحديث في خصور هيفاء، تمرح في الطرقات حسنا وصحة وشبابا. كلما لاقيت الأصدقاء رسمت على وجهي ابتسامة مجاملة.

يا لكثرة البدايات التي لم تكتمل حتى ظهرت أنت، شمسا بزغت في أفق حياتي وأشرقت على دنياي بعد طول انتظار.

* * *

وتسألني عن سرّ تعلقي بها هي.... فأتلعثم وأترنح، متسترًا خلف

عبارات مألوفة مطمئنة :

- ثقني أنك كائن عزيز عليّ شعين. لا يمكن أن ألحق بك أيّ ضرر على مدى الأيام القادمة. مألوفة أنت لكنّ نظراتك الحبلى بالحنان هي التي شدتني إليك.

- وتضطرم في باطني تبايرج الشوق والعشق، لم أشأ أن أعريها كلّها مرة واحدة حتّى لا أجرفها معي في سيول الجنون الهادرة أو تهرب من طريقي.

- ومع ذلك أبوح لها بأنّ نظراتها الدافئة هي التي أخرجتني من قيد وحدتي، وأنّ القدر هو الذي رسمها وصايا عشراً على ألواح قلبي، وأنني انجذبت إليها قسراً.

وأسألها :

- لقد اشتقتُ إلى رؤياك فمتى اللقاء يا أجمل فتاة اخترتُ أن تصاحبني في درب حياتي ؟

- قريباً.... حين تسمح الأقدار.

- والتأتأ بهمسها، بحضورها هناك في الطرف الآخر بعيدة عني بجسدها، قريبة مني بصوتها الأخاذ وحديثها الممتع وكلامها الساحر.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويتضوّع بؤحي إليها في أذنّها البعيدة :

- لقد ولّجت قلبي فوجه الضوء ... شمعتُ عطر أنوثتك المتألق، وتوسّدت ليلن عباراتك، وغرقت في لبح الهوى.... تهتُ في ابتساماتك العذبة فولدت من جديد ...

وأضيف :

- هل تذكرين تلك اللحظات البعيدة التي ترافقنا فيها كالطم أو الرذاذ أو الندى، عشقا حاراً ولهواً لذيقاً وفاكة قطفناها في غفلة من عيون الدنيا ؟

- وهل يمكن أن تُنسَى تلك الأيام ؟

- طالما تهتُ في تقاسيم وجهك المشرق بنور الشباب والحياة، وقد رسمت عليه الطبيعة الغناء مزيجاً من الفرح القادم والطم الواسع والأمنيات.

وأسمعها تهمس :

- يا لك من شاعر حالم مجنون ؟ ساكون لك وحدك فتدبر الأمر كما تشاء.

- وهل ستتعدّد لقاءاتنا ؟؟

- نعم !

ما أرق صوتها الحريز، يحلق حمامات بيضاء طليقة في سمائي، ويهدل بأمتع التغاريد في أنفي، ويلقي بي في أمواج المتع الخالصة !

لعل ارتعاشات صوتي قد خانت رغبتني الملحة في مدّ جسور أمّتي بيننا، قد تصدّع في وجه الزمن الهش، فندخل معاً في رحلات وأسفار سنّذ بادية لا تنتهي، ليس لها مدى أو قرار.

وأجدني متعلقاً بصوتها الدافئ أنعم بالأنس والمودة وأستحم في لذيذ الكلام، يصلني صافياً يخترق الروابي والجبال والأقاليم. فأتحدث بانفعال زائد... أحادث فتاة وأسمعها وهي في أوج العطاء، وكلّها أحاسيس حارة متهيئة للانطلاق، تنتظر من يفتح لها منافذ السدود، حتى تنطلق مياهها الزلال فياضة مضطربة الأمواج صاحبة تروي الثرى الظلم.

وأغمض عيني فأسكر، وانتش بالصوت الشهد يسيل في الحلق لذياً... أشرب منه فأثمل... وأغيب عن هذا العالم المتحجّر... أغتسل بشلال العشق المعطر المنكسب من بعيد القادم إلى... أغرق فيه وأتبه في بحار أنوثتها.

وألوذ بالصمت... أسكت... تضيق مني الأفكار... يخرس مني اللسان إن اللذة الخالصة لا تكون مصحوبة بأي كلام.

أتخدر... أغفو إغفاءات عشق وأنخبط في أحضان الحلم :

- مالك صامت ؟ أين رحلت ؟

....

- ألو !! هل مازلت معي على الخط ؟

- أنا هنا معك، لقد تهت في واحة صوتك وأخشى أن ...

- ماذا تخشى ؟

وأضيف - قبل أن ينقطع الخط الممتد بيننا - قطعات نحاسية مستديرة أخرى، فتتدلى في جوف الجهاز بانتظام وأسرّ قائلاً :

- لقد تبدد حزني هذا المساء، وتدفأت بنيران عشقك. وأخشى مفاجآت الأيام القادمة. فهل سيتواصل بناء ما قد شرعنا في تشييده ؟

وألوذ إلى صمتي مرة أخرى أحتمي به من العالم الكبير.

وأضيف مداعباً :

- لقد ضاعت أفكارني وخرس مني اللسان. أتذكرين تلك الأغنية الرقيقة التي كنّا رددناها معاً «وتعطلت لغة الكلام ...»

- «.... وخاطبتُ عينيّ في لغة الهوى عيناك..» طبعاً مازلت أذكرها جيداً.

- أنا مشتاق إلى النظر إلى عينيك.... إليك....

وبينما تضطرب أوصالي وترتعش عشقا، وأترنّج بسحر نغماتها، تنطلق من حنجرتها الزجاج ضحكة ورقاقة تطير بأجنحة من حرير، ترفرف ربحاً من الزمن اللّجّين في الفضاء، تسبح ضحكاتها الفاعمة في فضاء روعي فراشات قزحية الألوان، تترجرج كالشهد في أنفي الظامئة، أرتشفها جرعات متتابة مزيجاً من الجوهر والألماس والخمرة المعتقة، سائلاً مسحياً ما عرفتُ له مثيلاً في أنحاء الدنيا، ولا وعدتُ بمثله الكتب المقدسة، فأتمل وأغيب عن الوجود في حالة انتشاء قصوى.

- أتدريين أن ضحكك أضمن ما في هذا الوجود ؟

- أإلى هذا الحد ؟

وتنتعالي ضحكها أكثر فأكثر، فتنعم أذناي بمزيد من قطرات عذبة وضحكات رقيقة هامسة همس النسيم مغرية شامراً ناضجة، حسناء تجردت من ملابسها لتستحم، رحيقا وشهدا وحلما وجميعاً.

- بل أكثر من ذلك.... لقد حركتُ ضحكك فيّ ينابيع العشق الغافية، ولمست أعماق جسدي، ومرحت في ثنايا روعي كما شاءت وطاب لها المرحُ.

وأجدني أعمس :

- ما أحلى صوتك الحريري يا فراشة بقدر ما أمتعتني تسببت في
إيلامي

يا لها من ضحكة عجيبة الترنيم، عذبتني شردتني بأهداب عينيها....
ألقت بي على عتبات جسدها الصاخب ثمرات ناضجة وفاكهة شهية تتدلى في
سمت موسمها على شجرة الزمن تكاد يدى تلمس الشمار النضرة، وأنني
ترتعش لإيقاعات زغردة الطيور المنبعثة من الحنجرة الملانكية الشيطانية،
وجسدي يصطخب شهوة حمراء لا تنتظر التأجيل، وحلما شفافا لا تظفر به
الأيدي، فمتى أرتمي على صخور اللذة الموعودة فانهشم أو أسبح في بحران
الضباغ ؟

وتتساءل وكأنها مستاءة :

- هل أنهم أن علي أن أصمت أو أن أضحك ؟

- بل ابترسي تحدشي اضحكي غردني لي وللناس جميعا. فأنت
الدنيا ... فيضي من حولك محبة وأنغاماً. أنت ربيع الحياة فماذا تنتظرين ؟
اضحكي ! أطلقها على سجيبتها في الفضاء حارة مدوية عالية، زغردات فرح،
مثلما تشائين ويشاء ربيع عمرك القاتن المزهرفيك.

وتتساءل وبقايا بسماتها مازالت تتطايير متباعدة.

- لقد تهتُ معك عبر الأسلاك، ولا أدري ما أفعل ؟ فأجيبُ منكمر
اللهجة حزينا :

- لقد تركتُ أبوابي مُشرعة فافعلي ما شئت !

أنا ملهوف إليها مشتاق، دامي القلب، مقطّع الأوصال، أكاد أنوب من شدة
الشوق بينما هي تضحك وتعرج من بعيد وضحكاتها بريئة صافية لا تدرک مدى
تأثيرها في.

فمتى الخلاص ؟ أصبرا بعد صبر ؟ أعقلا بعد عقل ؟ أجدأ يدمر الوجدان
ويكبّل الأطراف ؟ لماذا لا ينطلق أسرى الجسد ؟ ويُفكّ عقال الفرس الجامح ؟
ونجري معا خلف الطبيعة الهاربة والحياة القصيرة نقطف من ثمار الوجود
السبع، لم تخلق إلّا لنتمتع بها نحن ! يتقابل آدم وحواء فيتحادثان برهة من
الزمن ثم يفترقان. فلماذا لا نلتحم الالتحام الأكمل. فيكون التوحد والاكتمال

قبل الافتراق ؟

وأقول مهدناً بصوت خفيض :

- حلم كبير أنت. حلم كبير أكبر من حقيقتك، لكنك حلم جميل كلُّما اقتربت منه تسبَّب لي من الآلام والأحزان ما يضاهي ما تسبَّب لي من الراحة والانتشاء، هل أنت ماء أم سراب أم ماذا ؟

- هل أعتبرُ هذا الكلام مدحاً أم ذمّاً؟

فأقول بلهجة منكسرة :

- حلم كبير شفاف أنت، لوحة لم يضع عليها الرسام من الخطوط والألوان إلاَّ النزر القليل، فمتى أستمتع بعطورك، وتقفين أمامي كما أنت غيماً ومطراً وأناماً... وأرسمك لوحة تامة التفاصيل يا فتاةً وطُأتُ على أوجاع عشقي، ومُعذِّبة والعشق لم يقرِّبنا بعدُ ؟ إنَّ كلامي مدح خالص يا حواشي الجميلة !

لقد انتشيتُ بها هذا المساء، ووصلت إلى قمم اللذائذ المُخدِّرة، قطعت الذِّمار صوتها، مسكاً وعبَّيراً، وأُفني ما زلت طائماً إلى مزيد من جنَّاتها.

طلبتُ منها أن تمدَّ فمها الزهرة لقبلائي البعيدة الشفافة، وأن ترفع عنقها النضرة للمسّات شفتي المشاقتين، فامتنت أول الأمر ثم استطابت الفكرة الغريبة.... وانطلقت من أعماقي قبلاّت حارة مستحيلة، جعلتها تبتسم ابتسامات مغرية مَرحة، عصفت بي وألقت بي في بحار الأمنيات.

طارت قبلاّتي في فضاء الأقاليم مهاجرة إليها حمامات طائفة مرفرفة باحثة عن الدفء لتحطّ على جسدها البكر وفمها النبع.

وأجذني أقول متضرعاً :

- يا أغلى نعمة اعترضتني في مسيرة هذا الزمن الطويل منذ نزول آدم وحواء على سطح هذه الأرض حتى الآن، اقتربي مني... انزعي قناع خوفك وارتمي بين أحضانني عروس بحر... نجمة متألقة.... أريجا يتضوُّع في هذا الكون.... عبيرا ملائكيا دمري قلاعك والحصون وقيود نفسك اهربي من نفسك إلى أحضانني فذراعي مدودتان مشرعتان تنتظران قدومك.

- ولكن....

- لا تتروّدي يا حسَنائي الجميلة - يا من عصفت بجسمي وروحي، هاتي
حنانك قبل أن نضيع في هذا الكون شهيدتي عشق، أو أخرج من راحتكِ إلى
مناهاث الجنون.

- ... لا قدر الله !

نظرتُ إلى الشارع فرأيت الظلام قد بدأ يخيم عليه، والناس من حولي
ينتظرون خروجي من الغرفة الزجاجية، فأدركتُ أنني ضائع إن بقيت بعيدا عن
شمار جسدها الربيع، فهي قريبة مني بعيدة عني في أن معاً.

أسألُ قبل أن تنتهي المأثرة، وقد خطرت ببالي فكرة مجنونة :

- ما رأيك أن نلتقي بعد حين ؟

- ولكن المسافات بيننا بعيدة

- سأطير إليك في الحال ! أترككِ لي تدبير الأمر.

وتقول راضية :

- افعلْ ما يوالك.

- ساكون معك بعد سويغات يا أحلى معذبة دمرتني بحسنها، وأخرجتني

من عزلتي القاتلة إلى لقاء قريب يجمعنا حتى الصباح !

- نعم، إلى لقاء قريب....

وأعيد السّاعة إلى معلقها المتحرك، مرتعش الأصابع جذلان، فتسقط في
الحجر الصغير قطعة نقود لم تلتحق بأخواتها إلى جوف الجهاز، أخذها وأنسها
في جيبتي : أغادر الغرفة الزجاجية وأنا أمسح قطرات العرق المتصبية من
جبيتي وأخرج إلى الشارع العريض، مسرع الخطو منجذبا إلى حواشي التي
تنتظر قدومي، وهاتفها ماً فتشّ يرنّ في رأسي، وصوتها يناديني أن أقبل عليها.

أسير مسرع الخطو، وكلمة واحدة تتروّد في رأسي وتقرع : لَبِيكِ...

لَبِيكِ... لَبِيكِ !

بوراي مجينة

مارس 1993

لَمَلَمْتُ

أشلائي قبل أن أسعل.
أصبحت أخاف أن ينفلت
منّي عضو حين يشتدّ
سعالِي... جارنا خميس سعل مرّة، ولم
يسعل بعدها أبدا. أقام حفلة لختان ابنه
الوحيد انطلقت فيها البنادق تزغرد ...
امتلات الموائد بالطعام والتفغنا نحن
الصغار حلقات مترامية على الأرض ...
اختطفنا اللحم وأخفيناه في جيوبنا ...

الخبز

انتقل جارنا بين القدر المشوّبة نذوق من كلّ واحد قطعة لحم كبيرة، وهو يقهقه
.... وعندما استدار الرجال بابنه ساعة الختان بكى. جلس على كرسي، وقد
شعر بالشبع والحزن ... مسد بطنه ثمّ سعل، فأنفجر فرحاً أمامنا، فصرخنا ...
وأصبحت أمي تقول لنا بعدها عندما نصرخ مطالبين بالزيادة في الأكل :

« هل نسيتمّ معكم خميسا !! لقد انفجر بطنه من الشبع! »

كنّا نشعر بالخوف في بادئ الأمر، ثمّ أصبحنا ننتشر بعد الأكل في
البساتين لنسرق الفلال والخضر حتّى نشبع ... وعندما يقترب منا زيد ابن
العمّ خميس نعايره بأبن « المغروث » فيبكي ...

قال لي والدي ذات ليلة وقد عصف بي السعال طويلا

« سأحملك غداً الى الطّبيب ... لن أسكت أكثر عن حالتك ... »

انكمشت، وإحساس بالفرح يغمرنني، وتذكّرت وشوشة تناقلها النّاس
عندما استقرّ الطّبيب بالمدينة .. قالوا إنّهُ لا يلبس إلّا اللّون الوردِيّ .. وإنّهُ لا
يخلق لحيته... وإنّهُ يكاد يعالج المرضى مجانا .. وإنّهُ فظّ غليظ ... لكنّ الحزن

يكمن في عينيه ..

وتذكرت أن اللون الأسود كان يستهويني منذ أن كنت صغيرة، حتى أن
جلّ أصدقائي لقبوني «بالنمر الأسود»... وكثيراً ما سمعت جدتي تقول لأمي :
«ابنتك كالغراب .. إن اللون الأسود شؤم ...» فتردّ عليها أمي :
«لقد أتعبتني ...»

زيد هو الوحيد الذي قال لي ذات يوم، وأنا أستلقي باسترخاء على
العشب :

«ما أجملك بهذه الثياب ؟! ...»

نظرت إليه، فرأيت لمعانا غريباً في عينيه، فقمعت إليه، وضربت، ثم
عايرته.... وعندما فرّ، وهو يمرّر يده على مؤخّرتي، ابتسمت، وانتشي داخلي
بإحساس غامض ... لكنني منذ ذلك اليوم، أصبحت أخافه، ولا أتجرأ على
معايرته ...

قام أبي باكراً، ثم ناداني :

« قومي يا بئيتي .. لقد أحضر ابن عمك الحمار ...» ركبته أبي، ثم
قفزت وراءه، وسرنا ... كانت الحياة قد بدأت تنتعش في القرية رأيت دخاناً
هنا وهناك وانتشرت دجاجات في المزابل ترعاهها .. وخرج أطفال، وقد شمر
كلّ واحد ثيابه، وأقعوا كالجراء، يتخلّصون من براز أقض مضجعهم

واصلنا السير صامتين .. بحلقت في الفضاء الشفاف أماننا كانت
أبخرة الدّدى تتصاعد، فأشعر بنفسي أتبخّر معها ...

أشار أبي إلى غابة تجمّعت قرب الوادي وقال

« هناك ... قتل الفرنسيون سنّة من مناظلي جبال خمير .. وشى بهم
جدّ خميس جارنا ... جازاه الله ... لقد مات مفروثاً...»

فانكمشت وراءه، كأنني أختفي من شيء ما، وبدأت أرتعش ...

همز أبي الحمار، فتمعّنت في رجليه وهما تنتفتحان، وتضبطان بطن
الحيوان ... كانتا مشقّقتين، وقد انحبس دم داخل الشقوق ... تذكرته عندما يعود

كلّ مساء مبتسما رغم الارهاق ، ويقول لأمي :

« لقد بعث كلّ الأعشاب، واشتريت بثمنها طعاما...».

ونلتفّ به، نقلّب نظراتنا في وجهه بإعجاب ويربّت هو على رؤوسنا،
فالتصق به .. يمسكني من كتفي ويضمّني قائلا :

«يا ولدي الأسود ..»

فأنفخ منخريّ عجباً .. وأتحسّ صدري ... كانت الرضوض الزرقاء
عليه تؤلّني .. وكنت أخفي ذلك على الجميع ... ولم يعرف أحد أنّي كنت أجمع
أصدقائي من الذكور ليضغطوا على صدري النّاتئ قليلا ليتساوى مثل
صدورهم ... وأنّني أضع عصا بين فخذيّ ليسيل البول مستقيما على جذع
الشجرة مثل كلّ الأطفال ... كنت أفعل هذا، كلّ يوم ... ولم أكن أدري في ذلك
الوقت أنّه بداية المرض ..

همزني والدي، وقال مستغربا :

« ألم تسمعي ها قد وصلنا !! ...»

فانتفضت ... وشعرت بنفسي حمامة تصدّد من يثر الكوابيس ...

ربط أبي الحمار، وسرنا مسافة طويلة حتّى بلغنا عيادة الطّبيب ...

كانت بسيطة جدّا .. علّق على جدرانها صور رجال شرسين ... لكنّ شيئا
غامضا فيهم يوجي بالراحة... وقبل أن أدخل غرفة الطّبيب، جذبتني صورة
امرأة لا يبدو إلّا وجهها، وسط غيمة من الضباب ... كانت هذه المرأة تصرخ ...
تصرخ ... تصرخ ... أصرخ ...

واستفقت ... فوجدت نفسي مددّة على فراش هزّاز يختلف عن سدّتنا،
وحولي أبي ، وشابّ ذو لحية دقّ قلبي حين رأيته .. إنّه هو .. قال أبي وهو
ينحنّي عليّ :

« ماذا حصل لك يا بنيّتي !! ... لقد توقّفت عند صورة أمام الباب،
وصرخت ... ثمّ أغمي عليك ...» ولم أفهم ...

أمر الطّبيب والدي بالخروج، وجلس إلى فراشي أمسك بنبضي ...

تسمع دقات قلبي ... ولأول مرة أحسست أنني لا أستطيع السعال، وأنني أود لو
يمسك بنبضي إلى الأبد ...

تساءلت، وأنا أنظر إليه متفلسة :

« ترى كم يبلغ من العمر ؟؟ .. »

وابتسمت. لا أدري لماذا تخيلت أن له قرنين من العاج وكرهت أن
يكون كذلك

رفع رأسه إليّ ... ترك نبضي وقال :

« إنك في صحة جيدة ... فعمّ تشكين ؟ !! ؟ »

ولا حظت أنه يتكلم ... وينظر إلى عينيّ حيناً، وإلى يديّ المشبتيين
أحياناً، فخلجت ... ثم اشتدّ ارتباكي ... وعجزت عن الكلام ... تشاغلتي بشعري
المشعث القصير دائماً ... ثم هتفت بدون سابق استعداد :

« اليوم ... الثامن من مارس !! .. »

انقلعت صوتي صراخاً، وصمتت، وعلى وجهي ارتسم قزع، وعنظ، وخجل...
طرق الباب، ودخل أبني متلهفاً، وغيثاه العاشرتان تسبقان كلامه .. جلس
إلى جانبي ... مرّ يده على شعري ووشوش :

« لا تخف يا الأسود ... »

ثم قام يسأل الطبيب، فأمسك به وخرجا .. عاد أبني بعد مدة وقال :

« بنيّتي ... ستبقين هنا إلى أن يقرّر الطبيب عودتك ... لا تفزعي ...
سأزورك باستمرار » فرحت ... لا أدري لماذا تخيلت عينيّ توأمي تبسمان
لي، وكأنهما تقولان :

« قريباً سنلتقي »

خاطبت والدي :

« سأبعث معك رسالة إلى أختي .. »

كُتِبَتْ لَهَا أَنْ تَبْعَثَ لِي مِرْأَتِي .. لَا بَدْ مِنْ الْمَرَاةِ أُرِيدُ أَنْ أَرَى فِيهَا نَفْسِي ..
كَيْفَ أَسْأَلُ ؟؟ كَيْفَ تَتَقَلَّصُ قِسْمَاتِ وَجْهِهِ وَتَنْفُجُ ؟؟ كَيْفَ أَتْبَاهَتْ
وَأَتَغَيَّرَ ؟؟ لَا بَدْ مِنْ الْمَرَاةِ

تَسَلَّمَ أَبِي الْوَرَقَةَ ... وَاصْطَدَمَ بِالطَّبِيبِ وَهُوَ يَخْرُجُ مَتَأَثِّرًا ..

« جَلَسَ إِلَيَّ وَقَالَ : « أَنْتَ مِنْذُ الْآنَ ضَيْفَتِي بَلْ صَدِيقَتِي سَنَقْضِي
وَقْتًا مُمْتَعًا فِي الْحَدِيثِ، أَصَارُكَ وَتَصَارِحِينَنِي وَبِيقَى الْحَدِيثِ بَيْنَنَا سِرًّا ...
فَإِذَا تَضَايَقْتَ مِنْ بَقَائِكَ مَعَنَا فَأَخْبِرِينِي، وَسَتَرِينَ أُنْثَى لَنْ أَخَيِّبَ أَمْلَكَ أَبَدًا
اتَّفَقْنَا »

هَزَزْتُ رَأْسِي وَصَعْتُ .. وَعِنْدَمَا هَمَّ بِالْخُرُوجِ قُلْتُ لَهُ وَأَنَا أَتَنَحَنَحُ :
- « دَكْتُور ... أَوَدَّ أَنْ أَطْرَحَ سَوْالًا، وَأَخَافُ أَنْ تَسْخَرَ مِنْهُ الْآخَرِينَ .. »

فَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَعَادَ إِلَى الْجُلُوسِ وَهُوَ يَرِيدُ :
- « أَبَدًا أَبَدًا .. لَنْ أَسْخَرَ مِنْكَ ... »

قُلْتُ وَقَدْ كَسَانِي عَرَقٌ :
- « هَلْ تَوْمَنُ بِتَمَاثِيلِ الْأَرْوَاحِ يَا دَكْتُور ؟؟؟ .. »
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ طَوِيلًا ... ثُمَّ أَطْرَقَ ...

فِي مَاذَا يَفْتَكِرُ ؟ هَلْ يَظُنُّ أَنَّ بِي مَسًّا ؟ وَلِمَاذَا يَتْرَكَ لِحِيَّتَهُ مَسْتُورَةً ؟؟
هَلْ هُوَ حَزِينٌ !! وَلِمَاذَا يَلْبَسُ هَذَا اللَّوْنُ ؟ فَهَلْ أَنْ تَفْكِيرُهُ مِثْلَ لِبَاسِهِ ؟؟ ..

التَفْتُ إِلَى الْجِدَارِ إِلَى النَّافِذَةِ .. وَشَدَّنِي سِتَارُهَا الْوَرْدِيَّ السَّمِيكَ ..
إِنَّ هَذَا السَّتَارَ يَحْجُبُ الرُّؤْيَا، كَمَا يَحْجُبُ الصَّمْتُ أَفْكَارَهُ، وَكَمَا تَخْفِي لِحِيَّتَهُ
شَفَتَيْهِ ..

قَالَتْ لِي جَدَّتِي مَرَّةً :

- « لِمَاذَا أَسْمَعُ صَخِيكَ مَعَ الْأَطْفَالِ، وَإِذَا عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ، يَشْتَدُّ صَعْتُكَ ؟
!!! .. أَشْعُرُ أَنَّ بَشْرًا عَمِيقَةً تَنْحَفِرُ دَاخِلَكَ، لَتَبْتَلَعَكَ فِي النِّهَايَةِ رَنُّ الْجَرَسِ،
فَرَفَعَ الطَّبِيبُ رَأْسَهُ، وَابْتَسَمَ بِعُذُوبَةٍ، وَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ
- « نَعَمْ ... أَوْمَنُ بِذَلِكَ ... »

ارتخت أعضائي، واستندت إلى الوراء ارتياحا، ثم استعدت جلستي بسرعة، وأدخلت يدي لأجرش الوخزات الحادة على صدري ...

كنت أجرش بوحشية وتشف، عندما دخلت ممرضة، أخرجت يدي بخجل مذنب ولم أنتبه إلى قطرات الدّم تلطّخ اللّحاف... تفرّست في وجهها .. كان جميلا، ومتورداً ذكرني بوجه عمّي .. كانت قد شمّرت عن ركبتها، وانهاالت عليها شفاً .. ثم أخذت لحافا أبيض، ولطّخته دما .. التفتت إلينا نحن الصغار وأطلقت زعزودة كالصقيع وقالت :

« اضربوا الدّف .. اضربوا الدّف .. » وعوى صوت أمي ... ورقصت خالتي باللّحاف لكنّ مهريّة لم تفرح ... تسمّرت في مكانها ترتعش .. كانت شفتاهَا مزرقّتين ... أقتربت منها، وقلت لها وأنا أنفّس في وجهها الشاحب :

«لماذا لا تبسمين؟؟؟!!»

فبكت مهريّة بكت ...!

دفعني إحساس غريب، وأنا أراها تخفي وجهها بيديها، وتنخرط في البكاء، أن أهرب ثم شعرت بالرعب الشديد، فازدادت سرعتي ...

فكرت أنّ مهريّة كانت الصّديقة الوحيدة لي .. وأناها كانت تسمع لجميع الأطفال أن يلعبوا معها ... إنّها تحبّ اللّعب، وتضحك كثيراً عندما نرتقي شجرة الخروب وراء منزلها، ونقعي كالغريبان، فنسمع أصوات برازنا المحلول وهو يرتطم بالأرض ...

كانت تجلب لنا الكثير من حبّ الرّيحان كلّما صعدت مع أمّها إلى الجبل لإحضار الحطب وعندما أخبرتني أنّها سترحل مع رجل، غضبت .. قلت لها :

« لا تذهبي .. ستعيشين معي عندما أكبر... »

فضحكت كثيرا، وقالت :

« إنّك لا تملكين عضوا مثل الرّجل الذي سأتزوّج »

فازداد غضبي، وهجرتها .. وفي الليل، انتابتني حمّى، فهذيت .. غلّفتني أمي بباء الزهر، والرّيحان، ففوت .. وعندما استيقظت، سمعت أبي يوشوش لامي :

- « إنها تناديه باستمرار إنها لم تنسه بعد ... »

اقتربت الممرضة مني مبتسمة وقالت :

- « لقد أوصاني الدكتور نادر بك خيرا .. »

اهتزت داخلي .. واختلج وجهي .. وتصارعت فيه مختلف الأفكار .. سألتها:

- « هل أنت زوجته ؟؟ ... »

ردت وقد فاجأها سؤالتي :

- « لا ... »

قلت بصوت من لا يسمع نفسه :

- « هل تحببته ؟؟ ... »

قالت : « نعم »

وأضفت ونسيمة تحفرني حفرا :

- « وهو .. هل يحبك ؟؟ ... »

وسبحت عيناهما في انقاء شفاف عجيب وأجابت

- « أجل ... »

فكومتني غيظ حتى كدت أصرخ .. وتمثلت أمامي الصورة الغيمة ..
فبدأت أتجمد وتسرب الصقيع إلى أعضائي .. وهم السعال هي حين قالت :

- « إنه يحبنا جميعا .. ونحن نحبه .. مصلحة المرضى قبل كل اعتبار ..
فإذا لم نحبه بعضنا ونتكاتف، فإن الداء سينخر مرضانا .. »

وانتهبت إلى عينيها، فرأيت نظرة الوجوه الشرسة .. إنها نفس النظرة
.. النظرة الغامضة التي توحى بالراحة ..

لم أسعل ... وحين تلمست أطرافني لم أجدها باردة.

استعدت جلستي .. ونظرت إلى الغطاء أرتبه فصرخت من الرعب :

«الدَّم .. الدَّم ..»

خرجت المعرّضة بسرعة .. ثمّ عادت مع الطّبيب .. بينما ظللت أصرخ ..
وأضبط اللّحاف على صدري .. فحقنني الطّبيب .. فشعرت بارتخاء مخدّر .. ثمّ
نمت ..

كانت السّماء صفراء .. وكان وجه المرأة الصّارخ مائلا أمام وجهي ..

انفلتت الصّورة من أمامي، لأخذ مكان الوجه الصارخ ... كنت أشعر
بالعطش والغثيان ... جفّ حلقي ، ولم أستطع الصّراخ ... تقدّم منّي رجل لم
أستطع تذكر وجهه ... اقترب ... سمعت صوته يهمس :

« حبيبتي ..»

كان صوته حنوناً، دافئاً .. اقترب أكثر .. كان يلتصق، والابتسامة لا
تفارق شفّتيه .. وفجأة رأيت سكّينا بيده ... وقرأت في أصابعه العزم على قتلني
... لا .. لا .. لا تقتلني ... برك على صدري وهنّع سكّينه على نحري ... و ... وبكل
ما أوتيت من قوّة صرخت ...

استفقت من الحلم مبكّلة بالنعرق ... وشبهة غريق يطلب الهواء في حلقي

حين هدأ روعي ... رأيت الطّبيب نادر ينحني علي ليقول :

«هل تشعرين بالخوف ؟»

وللحظة، فكّرت في احتضانه، ودفن وجهي بين ثيابه الوردية، والبكاء
بصوت عال.. جلس بجانبني، وسألني مرّة أخرى :

«هل بإمكانك أن تخبريني بحلمك ؟ ..»

فتردّدت ... شعرت بأمنيّ تقف أمامي مهدّدة قالت إنّني يجب أن أعترف
بمن سرق البطّيخة التي تركتها لتفزع لتفوس بذورها .. ولم أرد ... صفعتني
... عضّنتني .. ولم أتكلّم .. ناورت .. فتليّنت، وتحبّكت دون جدوى ..

ربطتني بحبل، وأنزلت نصف جسمي في ماء البئر .. شعرت بأنّ
حياتي مشدودة بخيط عنكبوت .. كرهت أمنيّ .. كرهتها كثيراً ونقمت عليها ...

أسرعت أختي وانتشلتني وهي تسبّ وتعلن ...

أمسك نادر بيدي .. ضغط عليها قائلاً :

« إنّي صديق، فلا تخافي .. انفضي غريبتك وأخبريني .. سرّك سيبقى محفوظاً ما حييت وسأحاول جهدي أن أساعدك ... »

خنقنتني مرارة ، وتدفّق دمعي، فاحتجبت الرّويّا .. لم أخبره بفقرنا وأيام
الحرمان والتّنهّد .. لم أحدّثه عن رائحة الشّواء تفوح من منزل العمّ خميس،
وهو ينشأ بالطّوب والبصاق .. وعن أرضنا التي كانت مثمرة قبل القسمة..
وعن مهريّة .. وعن البئر مقبرتي .. وعن، وعن، وعن، قلت له فقط :

« إنّني عطشى .. أريد الماء ... »

مدّ لي كوباً، فشربت ماءه، فاستقرّت برودته قشعريرة تعاطمت شيئاً
فشيئاً، ثمّ بدأ سعالِي .. وسط هذه العاصفة من السّعال، أحسست بوخزة في
فراعي غابت بعدها مباشرة ...

وجدتني في حديقة كبيرة، خضراء، ووديّة الزهور .. أسير والدكتور
نادر يداعبني ... يحتضنّني .. وصدري يتصلّب على صدره .. أه يا نسيمات
الرّبيع ... ما أجمل أن أسكن إليه قلت له ونحن نجلس إلى بعض :

http://Archivebeta.Sakhril.com
« لماذا أحببتني ؟ لماذا اخترتني من بين الألف ؟ ... »

لم يجبني ... نظر إليّ طويلاً ... تسرّب دماء عينيّه إلى أوصالي .. فاحت
رائحة الورود .. وبسط الحرير أمامي .. تخذّرت .. تغمّضت عينيّاي ... التفتفت
كشرنقة بنسيع معطر وافتّرت شفتيّاي عن أهة ووديّة ... وفجأة، تخيلت الرّجل
وهو يحمل سكيناً، ويحاول أن يجتثّ شديي ... ففتحت عينيّ برعب .. فإذا
بنادر قد اختفى .. وإذا السّماء ترعد وتزبد فتتهطل الأمطار غزيرة، فتبتّل ثيابي،
فأسعل، وأسعل، وأسعل .. ثمّ أفيق ... عندما تركّزت نظراتي ... رأيت والذي قد
جلسا إليّ، ودموع تطلّ من عيني أبي، وحزن يكسو وجه أمي ...

ابتسمت لهما، وطالت الابتسامة بيننا .. أخرج أبي لفافة وقدمها لي
قائلاً :

« هذا ما أوصيت به ... »

أخذتها، والابتسامة لا تفارق شفتي .. تحدثنا طويلا .. تذكرنا الماضي،
وحرقتنا المسافات .. ولما انتهى وقت الزيارة، وهم والداي بالانسحاب ... بكيت
... وانحنى علي أبي ليخبرني أنه لأول مرة يرى دموعي ... وربتت أُمي على
كتفي وهمست بأنني لست صغيرة لأبكي بسرعة.

وازداد نشيجي، فانحبس نفسي، وضغط ... لكنني تناولت نفسي،
وابتسمت لهما، وهما يغيبان ...

بقيت وحدي في الغرفة .. أجلت بصري على الجدران .. ثم استقرت على
الستارة الوردية ... وتذكرت شيئا ...

أخذت اللقافة بسرعة. وأخرجت المرأة .. نظرت إلى وجهي .. وتفرست
في ملامحه : عيناان ينيتان قد انتفختا من البكاء .. وأنف كبير يشبه أنف
جدي .. كان الجميع يؤكدون أن أُمي كرهت أباهما عندما كانت تتوحم بي ... وأنها
تجرش أنفها كلما راته ... وأنها كرهت رائحة السجائر التي يتناولها أبي
بشراهة وأنها كانت تأكل الطين طيلة شهور الحمل ... وعندما وضعتني دونما
تعب ... كنت ممطرة بالطين .. أمسكتني الداية وهتفت :

«الفائدة في خلاص الرجل ...»
والتفتت أُمي بسرعة : كما أخبروني - وسألت
<http://www.sakna.com>

«بنت ٩٩٩٩٩٩ ...»

وحين تلقت الخبر كالصاعقة، أدارت لي ظهرها وهي تتمتم :

«أنشى خامسة ...»

سمعت طرقا على الباب، فأخفيت المرأة بسرعة وأصلحت من شأنني ...

أطلت نادر مبتسما .. جلس على حافة السرير .. جس نبضي، وعلقت ...

«كنت تبكين ! ؟ ...»

ولم ينتظر الرد، فواصل :

« كان يجب أن تريحني أعصابك ..»

ثم توقف عن الكلام .. وضغط على زرّ، فدخلت الممرضة .. قال لها :

« أخرجنا إلى الحديقة .. فالمساء هادئ، والنسيم عليل ... »

فكرة لم تخطر ببالي ... إنني أحتاج فعلا إلى نزهة ... إلى انطلاق كليّ...
دخلنا الحديقة .. كان العشب الأخضر ممتدّا وكانت زقزقات العصافير
وهي تتفازل، تبعث فيّ شحنة من الدفء ..

انتابني نوع من الاستهتار، فبدأت أجري وأجري ... وأدور بجنون .. ثم
أجري ... ياه .. كم جرينا في الجبال .. كم تسلقنا أشجارا ... كم حفرنا فخاخا
للشعالب والذئاب هناك - حيث البرك ممتدة كالأحلام - عرفت الحرية ...

وهناك ... هناك عرفت الحقيقة ...

شعرت - وأنا أجري فوق الأعشاب كأنّ ثيابي قد شقّت، وخفّت،
وطارت، وتكوّم داخلي صراخ صبيّ ولید .. ثمّ حضنتني سكينه بلهاء ...

تددت على ظهري بهدوء، وصورة من طفولتي تطلّ حرجة خجولة ...
كانت أُمّي قد حرمت عليّ اللعب مع الأطفال قالت يوما : إنني أختلف
عنهم .. ولم أفهم ولدت بعناد <http://Archivebeta.Sakila>

« سألعب ما دام أخي يلعب معهم ... »

وأمسكت حديّ .. فقرصتني بشدة، ثمّ نادى أخي ... عرّتنا ... وأشارت
إلى أسفلنا وردّدت بفحيح :

- « لست مثله .. أنتظري .. إنّه رجل .. وأنت من أنت ٩٩٩ أنثى .. انثى
يجب أن تستر عورتها .. »

واستولى عليّ الذهول .. ولم أعد أسمع شيئا وكلّ ما أذكره بعد ذلك
اليوم ، أنني لا زمت الفراش مدة طويلة .. وكرهت أخي، وقررت أن أكون
أفضل منه في كلّ شيء ...

ولم أنتبه وأنا في وضعي ذاك إلى أنّني بدأت أتنفّس بصعوبة .. وأضغط
على صدري .. ثمّ أسعل ... فأمسكت الممرضة بي وعدنا ...

في الصباح ... دخل عليّ نادر مبتسما .. بدا جميلا، وطيباً جداً .. لم أعد
أتخيله بقرنين من العاج ... سقط قرناه في منتصف ليلة مقمرة كما في
الخرافات ...

شعرت نحوه بميل شديد، وتبادر إلى ذهني سؤال وأنا أردّ على
ابتسامته ...

«تري هل تزوّج مثل مهرية ؟ هل أنت متزوج يا نادر ؟»

كنت أردّد سؤالِي بخجل داخليّ عندما هتف :

«لا ... لا .. (وانتفضت روحي) .. صحتك أصبحت جيّدة .. لقد بدت
عيناك الذكيّتان لا معتين ..» جلس إليّ .. أمسك بيدي وسألني برّقاء :

« هل نتحدّث ؟ .. ! »

هزّزت رأسي، ثمّ أسندته إلى الوراء ... لم أتحرّج وأنا أحدثه عن شحّ
الزّمان ... وعن السّدة التي تجمّعنا عند النّوم .. وعن الكوخ الذي يتلوّن إلى
غرفة الأكل، فالمطبخ فالجلوس، فغرفة النّوم .. وعن مشاركة البقرة الوحيدة لنا
المسكن ...

حدّثته أيضاً عن أبي الذي كان يبيع الأعشاب ليطعم أفواه إخوتي العشرة
.. وأخبرته عن أمّي التي اعتبرت أنّ خلفتها التي كانت إناثاً عقاب من الله ...

حدّثته عن كرهِي لأخي الوحيد الذي عوى عند قدمي أمّي بعد سنة واحدة
من ولادتي .. ولم أنس مهرية ... وعندما بدا لي طيف توأمي ... صمت ...

نظر إليّ نادر ... ثمّ، وببطء محبّب أمسك بيدي ...

كانت يده دافئة جداً .. ولم أتصوّر أبداً أنّ يد الرّجل، يمكن أن تحمل
الدّفء كما تحمل القسوة ...

شعرت بارتخاء ... وبرغبة حزينة في البكاء وبدت لي حقيقة كانت
غائبة عني .. وهي أنّي لم أترك لنفسِي مكاناً للعواطف .. ولم أنتبه إلى أنّ
دموعي الحزينة، قد بدأت تنسكب على وجنتي .. ولم أدر كيف دفنت وجهي بين
ثياب نادر الوردية، أبحت عن إحساس ما .. ولا كيف أمسكت به بعنف، وبدأت
أضغط .. وأضغط .. وأنّ أنين امرأة ولود .. ثمّ أرّختي بعدها ... عندما استفتقت

.. كان الهدوء يملأ الغرفة دفعتني فكرة مفاجئة أن أجمع شتاتي وأهرب .. لن أبقى في هذه العيادة.. شيء غريب ينبت داخلي .. بل أمر رهيب بدأ يتوضّع .. لا بدّ من الفرار .. الفرار .. الفرار ... كنت أجمع حاجتي بسرعة أفكاري .. ثمّ فتحت الباب، وانسلت خفية ... ولم يلحظني أحد وأنا أصل إلى الباب الخارجيّ ... وانفلت راکضة .

جلست في محطة الحافلات - لا أدري كيف قادتنني قدماي إليها .. شيء غامض يدفعني بل يجرّني إلى هناك - وبدأت ألتقط أنفاسي المتبعثرة ... شيئاً فشيئاً هدأت .. واكتسى وجهي بمسحة سوداء من الحزن ..

كنت حزينة إلى درجة الجمود .. وكان فكري البائس يطرد صورة نادر، فتعلّق عينايا بأيّ مشهد، أو وجه، أو صورة لأغافل فكري، تراسى بصري مراراً إلى وجه شابّ حزين ينزوي في ركن ضبابيّ من المحطّة ... وتساءلت للحظات إنّه وجه مألوف مجهول ... ثمّ استهووتني مراقبته .. كان يختفي فجأة .. ويظهر فجأة .. ويمعن في الاختفاء كلّما مرّ شرطيّ من ساحة المحطّة ... ثمّ لم أره بعد ذلك ...

جاءت الحافلة فركبت .. لا أدري القوّة التي كانت تدفعني لذلك ... وقبل أن تنطلق بدقائق دخل الشابّ ذو الوجه المألوف المجهول، وجلس بجانبني .. التفت الى كلّ الجهات ثمّ تنفّس ارتياحاً عندما هدو مجرّك الحافلة. كنت أراقبه خفية ... انشغلت به عن كلّ شيء. أدار لي وجهه مراراً، ثمّ قال :

- « الحزن يملأ عينيك ... »

وصمت.

شعرت بفرح بائس يبخّر حزني ، فابتسمت .

قال : « ابتسامتك عذبة ... »

فخجلت ... تنهّدت بعد مدّة من الاطراق وقلت

« لقد ولد الحزن من نفس المشيمة التي نزلت ... » ردّد يعطف :

« كلّنا بؤساء .. فلا تجزعي ... »

شعرت براحة تغزو كياني، فاسترخيت في مقعدي .. وطفقت أحدثه،

وهو مطرق، وسحابة من الحزن تحوم حول جبينه ... ما أجمله !! ما أدفاً إطراره
!! ما أعذب صوته !!

لَقْنِي بنظراته عندما صمتُ وقال :

- « لقد كنت صريحة معي كثيرا .. وساكون معك صريحا بنفس الدرجة ..
لكن ثقي أن حياة بهذا الشكل، لا تستحق أن تعاش ... ولا بدَّ من حياة
أخرى ... »

أرعبتني الذكري .. مهيبة .. أه يامهيبة ... يا أوراق الحناء، أعيدي رسم
حنَّتها ... غزالا كانت .. طفلة مازالت تحلم بقطعة سكر وقبلة خبأتها لها السُّنُون
... يا نسائم الربيع لم لم تهلي عليها ... تدغدغي أنفتها ... فقد كانت تحبُّ الحياة
.. وتؤمن بالحظ ... طال الصمت بيننا ... ثم تمتعت بوهن :

« لا تدع الأفكار السوداء تسيطر عليك .. » لَقْنِي بنظرة المشفق وردد :

« هنيئا لك البراءة تتمتعين بها .. »

وأدركت وقتها أنه إنسان يأنس مثلي .. وأنني مهتمة به كثيرا ..

عندما توقفت الحافلة .. قفز الشاب من مكانه فكان أول النازلين ... ثم لم
أره ... شعرت أن شيئاً انسلَّ داخلي حتى كدت أقع وهنا ... لا تتركني أرجوك
... بحثت عنه بعينين لفتهما الوجع والفجعة ... خرجت من المحطة ... أجلت
بصري هنا وهناك، قرأته يمرق إلى زقاق ناديت : يا .. يا ...

فالتفت ... وقف كلانا أمام الآخر .. رأيت خيطا رفيعا ... هو خيطي -
يحاك بدقّة في عينيه ... سألني باضطراب وقد طال السكون بينا :

« هل أنت من هنا ؟ لقد رأيتك تخرجين من عيادة الـ... »

فاتنبتني إلى حقيقة وضعي ... تذكرت أنني فارة .. تذكرت الدكتور
نادر ... وانتبعت على أنني في مدينة كبيرة أجهلها ... فاشتدَّ ارتباكِي ... وطال ...
واحمرَّ وجهي حتى ألمني لهيب أنفي .. فلاحظ الشاب حالي فسألني :

« هل هناك مشكلة ؟ هل من مساعدة أقدمها ؟ ؟ إنني أعرف هذه

المدينة !! »

امتلات عيناى دموعا، وبلعت ريقى بجهد ألّهثنى وقلت :

« لا أعرف أحدا فى هذه المدينة ... » فصمت .. همّ بالكلام، ثمّ صمت.
بحث فى جيوبه باضطراب، ثمّ تنهّد، وقال :

« هل معك نقود ؟ ؟ ... »

فحرّكت رأسى بالنّفى .. فضرب جبينه بكفّه وهتف :

« ولا أنا .. »

ثمّ صمت، فتعلّقت به .. أجلت بصريّ إلى المساء الرّمادى، وخفت ...

مهريّة هربت من المنزل فى الظّلام شقّت الغاية ثمّ اختفت ... وفى
الظلام . عشر بعض الحطّابين على أشلائها، وقد مزّقتها الذّناب ... قلت له :

« الليل قد انتشر ... »

فأجاب كمن أراد أن يحسم المسألة :

« تعالى معي ... »

تبعته، وأنا متعلّقة بأصابه، كطفل ضائع اشتّم رائحة ثوب مألوفة

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

سرنا فى منحرجات، وأزقة تتسع وتضيق تعبت .. قلت له :

« نستريح قليلا »

استحقّنتى بيده دون أن يتكلّم .. واصلنا السّير صامتين، حتى توقّفنا أمام
منزل بدا مهجورا، ودفع بابّه .. فدخلنا نظرت ببلاهة الى كلّ الموجودات ..
ولم أفقه شيئا .. لكنّى شعرت أنّى أعرف المكان .. احساس غريب انتابنى،
فتحرّكت .. دخلت المطبخ بسرعة ... نظرت إلى جليّزة تحت حوض الضّفيرة،
وانحنيت عليها ... نعم ... إنّها هي .. حاولت أن أرفعها .. كانت تتحرّك. أسرع
الشابّ ووقف ورائى مذهولا .. رأيتة مذهولا ... لماذا كان يقف ورائى وقد
انسكب جماله غباوة ؟ ! ! ! لا أدري لماذا أحسست أنّنى أستدير نحوه، وأنظر
إليه بشراسة ! ! .. ثمّ نسيت كيف وصلت إلى ذلك المكان .. قال لي :

« هل تعرفين هذا المنزل ! ! هل دخلته من قبل ؟ ؟ ... »

نظرت إليه ببلاهة ونفيت ... ثم سألت وقد شعرت أن أعصابي تشتد
كاوتار آلة موسيقية :

« لماذا توجه لي هذا السؤال ؟ ! ! » ..

« لقد دخلت المطبخ بخطي من يعرف هذا البيت ... ثم انحنيت على
هذه الجليزة تريدني رفعها ! ! ... »

ولم أفهمه. نظرت إلى المكان الذي أشار إليه ... ولم يوح إلي بشيء ..
انسد تفكيري ... ثم عاد وصفا فجأة .. وشعرت بالارتباك من جديد .. جلست على
كرسي. وتملكتني عاصفة من البكاء ... بكيت ... بكيت ... بكيت لم أعرف سبب
بكائي .. لكني بكيت ... اقترب الشاب مني .. كان يرتجف .. سألتني

« هل خفت مني ؟ هل أخرج من البيت ؟ هل كان المنزل ملكا لك
ولعائلتك ؟ .. لا تبكي أرجوك ... »

كانت أسئلته تتناثر تباعا، وأنا أئن وأهتز ... توأمت حل في جسمي ..
شعرت بالدفع ... التفت إلى الشاب ... فاشتغمت فيه نسمة حبيبة ... تحاملت
على نفسي، وعلى ارتعاش جسدي، وطوقته بقراعي ... دفنت وجهي في ثيابه،
وضغطت جسمي إليه، فتمسك كالحديد برودة ... وشوشت :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

« أبحت فيك عن توأمتي ... »

حاول التخلص مني .. ثم بدأ تنفسه يتسارع ويشتد ... أنزل يديه إلى
كتفي، وضغني بدفع كبير ... أآهههه ... ضغني مسح خده على شعري ...
ثم، وبجهد، حاول أن يبتعد عني، فالتصقت به .. كم هو دافئ ! ! كم هو مريح !
كم كنت عطشي إلى مثل هذا الدفع ! ! ...

وشوشت بصوت ملؤه الخدر اللذيذ :

« لا أصدق أن جسدي المقبور برغباته قد بعث اللطف ! ! ... »

فاختلج جسمه، وردد بصوت مبجوح :

« إنه القحط ... »

ثم أضاف :

- «لقد ارتحت إليك كثيرا»

لهف نفسي على القحط الذي عَشَّشَ دهورا... لهف نفسي على العلم
الوردي الذي دغدغ غريزتي العانس ...

رفع ذقني .. ونظر إليّ وعيناه الصّافيتان تبسمان لي، فإذا بي ، لسبب
أجهله، أتذكر نظرة الوجوه الشرسة ... نظرت إلى شفّتيه .. وانتابني خجل
اضطرب له كامل جسدي وانتفض ... قال لي بصوته المبحوح :

- « رفقا ... لا تثيريني أكثر فوحقّ عينيك البريئتين ، ما عرفت لذّة
العناق إلا معك»

ابتعدت عنه مبهورة الأنفاس ... وتهالكت على الكرسيّ أرتجف بشدّة،
ولا أصدق نفسي ... أسرع ليمدّني ... حملني إليه ... ضمّني قبل أن يضعني
على الفراش ويغطّيني ... همس :

- « عليك أن تنامي»

ثم طبع على جبيني قبلة محمومة ... وتحرك إلى الخارج...

تعبت ... أتعبتني الحيرة .. وتذكّرت الدكتور نادر في ظلمة تلك الغرفة،
فبدأ بعيدا جداً لكنّه تهاوّن بوجود أكبر من اللّمس <http://www.arschive.com>

أمّا هذا ... ما اسمع يا ترى ؟ ؟ ما هو الاسم الذي يليق بوجهه الرّائع
الحزين ؟ ؟ ..

عندما التقيت بتوأمي لأول مرّة، كان يحفر الرّمال، وكأنّه يبحث عن
شيء ما ... اقتربت منه، ثمّ أنهمكت في الحفر دون استئذان وشعرت أنّه كان
ينتظرني ... نظرت إليه، فرأيت وجهي فيه ... نفس القسمات ... نفس
الابتسامة ... نفس الجسد ... أمسكت بيده، فإذا هي يدي ... رأيت في عينيه
حلمي .. قال :

- « فريدة ...»

همست :

- « فريدة ...»

همست :

« فريد »

لعبنا كثيرا ... رميته بالماء فرماني ... بنيت قصرا من الرمال، ثم
التفت، فوجدت قصره قصري وعندما تخدّرت النّسائم، قلت له :

« تعود معي ... »

قال : « نعم ... »

وذهبتنا. أراني جليزة حمراء تحت حوض الحنفيّة وقال :

« تحتها، ندفن ودع البحر ... »

زحزحناها ... ووضعنا ودعنا، ثم أرجعناها إلى مكانها ... ولما استفتت،
قلت لأمي :

« لقد وجدت توأمي .. ذهبت معه إلى المنزل ودفنّا الودع تحت جليزة
بالمطبخ ... »

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa>

ربّبت أُمّي على رأسي ورثت :

« إنّه حلم يا بشيتّي »

وتكرّر الحلم، وفي كلّ مرّة أخبر أُمّي ... لكنّها كانت تؤكّد قولها ... ثمّ
بدأت تضجر ... أخبرت والدي، فظنّ بي بداية هوس ... ولم تصدّقني أخواتي ..
فأغرقت في الصمت .. انتفضت من مكاني ... أشعلت الضوء ... وتوجّهت إلى
المطبخ ... نعم هنا ... بعض الغشاوة تنزاح عن عيني، فأنمّع في الحوض ...
تنحدر نظراتي إلى جليزة.. أشعر أنّها لي ... ألمسها ... أحاول زحزحتها فتتحرك
.. أخذ سكّينا، وأزيح الغبار المتلبّد عن جوانبها .. وأرفعها .. ثمّ أبقى مدهوشة ...

الودع !! .. ها هو الودع !! كيف جاء ؟ وكيف عرفت ذلك ؟ ؟ ؟ !!
..أغمض عيني، أحاول التذكّر، فأعجز عنه أتساءل : هل زرت هذا المكان من
قبل ؟ ؟ ولا أعرف الجواب ... أتسمّر في مكاني، وأبحر في الصمت، تشفّ
نفس .. تشفّ .. وتصعد من داخلي همسة أعرفها :

« فريدة .. »

- فريد ..

- احملي الودع .. وعودي به إلى البحر ..

- إنَّه ودعك أيضا ..

- نعم، ويجب أن تقسميه ..

- فريد .. لا أستطيع ...

- قلت يجب أن تقسميه .. اتركي نصيبي هنا، واحملي الباقي ..

- أشعر أنَّي سأنشطر نصفين ..

- نفس الألم يجرُّ لحمي ..

- فريد .. أريد أن أراك ..

- سنلتقي يوما يا فريدة .. فلا تجزعي ..

- نعم .. لا بدَّ أن نلتقي ..

أحمل الودع ... أضمه إليّ ... أقربه إلى أنفي فأشُم راحتي فيه .. أضعه
على الفراش، فأشعر أن توأمي ينام بجانبني ... ثم أغفو ...
استفتقت على إدارة مفتاح .. ففتحت عيني، واختلطت الأمور في ذهني
... ثم سمعت طرقا على الباب ... فاشتبهت ... واشتدَّ تخارجي حين سمعت صوتا
ألفته بسرعة يقول :

- « أنستني .. هل استفتقت ؟ ؟ .. »

ثم فتح الباب ...

دخل «فادي» هكذا جاء الاسم فجأة ، فرأيت وجها متعبا، وعينين
محمرتين، وشعرا منكوشا فانكمشت في مكاني خجلا .. قال :

- «هيا اغتسلي ... واستعدّي للعودة ...»

ثم وضع بجانبني مالا .. ومرَّ إلى المطبخ ... قمت من فراشي وقد تهدل
جسمي، وتعاظم خجلي .. جمعت الودع، ووضعت في الحقيبة الصغيرة وعندما
جلست إلى طاولة الافطار، أمسك فادي بيدي وقال :

« هل نمت جيّدا ؟ ... »

هززت رأسي وسألت :

« أهذا منزلك ؟ .. »

تردد كثيرا قبل أن يجيب :

« إنّه لصديق .. وأنا أسكنه فترة من الزمن .. » لم أكل شيئا ... ولم أع
ما قال .. أحاطتني هالة من الغباء .. حملت حقيبتتي وهممت بالخروج ،
فاستوقفتني وضع يديه على كتفي ، ضمّني إليه وهتف :

« لقد أحببتك كثيرا ... »

ثم خرجنا ... مررنا من شنايا مختلفة، متشعبة ومتعرجة

... وقبل الدخول إلى المحطة توقّفنا مدّ لي ظرفا وقال بارتباك :

« أرجو أن تطلّمي عليه عندما تصلين ... »

ثم أمسك يديّ طويلا .. وعندما تحركت للرحيل رأيت مسحة من العزن
تكسو وجهه .. ثم غاب وسط الشنايا اللتوية ...

- وصلت إلى المنزل قبل خروج أبي ، استغروب الجميع عودتي.
وسألوني عن السبب، فقلت بإهمال :

« لقد هربت من العيادة ... »

سكت أبي مدة ثم قال :

« على كلّ حال ، سأزور الطّبيب. لا أستطيع أن أبت في الأمر إلّا بعد
مقابلته ... »

ثم ركب الحمار، وانطلق يهزمه همزا .. قلت لأمي وأنا أتمي بجانبها :

« هل تذكرين فريدا يا أمي ؟ هل تذكرين الودع ؟ ؟ »

نظرت إليّ بارتياح ... ثم غارت عيناها كآبة.

فتحت الحقيبة، فتناثر الودع. أشرت إليه منتصرة :

« لقد وجدته في نفس المكان الذي رأيته مرارا في الحلم ... »

تلعثمت أمي وهي تردد :

« وأين وجدت هذا المكا ٩٩ ١١١٩ ... »

وعندما لم أجبها، قالت وهي تقوم :

« إستريحني قليلا يا بنيّتي .. فلا شك أنك تعبت كثيرا في طريقك إلى

هنا ... »

فعرفت أنّها لم تصدّقني، لكنّي لم أهتمّ ... خرجت إلى الحقل ... أجلت
بصري بعيدا، وتنفّست ملء رئتيّ .. ما أنقى هواء الرّيف ! تصاعدت أبخرة
الأمي، فتعطّلت أعضائي ... شعرت بصفا عجيب يجلّكني ، فانطلقت أساريير
وجهي « الآن فقط .. عرفت أنّ توأمي كان حقيقة ... » رددت ذلك مرارا .. ثمّ
جلست. أخرجت الرّسالة، فشممت رائحة الودع .. خفق قلبي وشعرت بندي
الورد يبلّكني .. يغلف سمائي بهالة شفافة من العطر، فترفرف ضلوعي فتحت
الرّسالة .. وتابعت سطورها ... فأصابني ذهول، ثمّ ارتعاد غزا كامل جسمي.
أعدت القراءة ثانية ، فثالثة ... وأصابني دوار وغثيان ...

أمسكت بجيبيّتي، وتحاملت على نفسي ... لقد اغتيل فرحي الوهمي ..
<http://Archivebeta.Saibeta.com>

سرت نحو البيت، وأنا أردّد جملة ترديد اسطوانة مشروخة :

« هذا غير ممكن ! ! هذا غير ممكن ! ! ... »

وصلت إلى ساحة البيت .. كانت أمي كعادتها كلّ مساء تجلس أمام
الموقد، تقلّب الخبز، وتنفخ الحطب، فيرتفع الرّماد إلى ناصيتها التي انزع فيها
الشّيب ... وانتشرت الدّجاجات حول العائلة، وفوق المزابيل المحيطة بالكوخ
جلست على العتبة صامتة، ولم يهتمّ بي أحد فقد ألف الجميع سكوني ...

أطلّ الحمار، ونهق ... ثمّ ظهر أبي ... فأسرعت إلى المصباح النّفطيّ
أشعله ... وأحضرنا العشاء ... صبّت لنا أختي الكبرى اللّبن في إناء واحد
وشققت الخبز، فتداولناه، وبسرعة، أتمعنا العشاء، فلم يبق شيء للكلب الذي
يصبص بالقرب منّا ...

سألت أمي الوالد، وقد انكمش كل واحد منا في مكانه تحت الضوء
الهزيل :

- « ماذا قال لك الطبيب عن عودة البنت إلينا ؟ » تنحنج أبي ليفرض
هيبة الاستماع إليه وقال :

- « لقد طمأنني ... ثم إنه أعطاني كتباً طبية وأوصى بضرورة إتباع
نصائحها، لأنها تساعد على الشفاء ... »

ثم أخرج من تحت سترته التي لا يلبسها إلا عند السفر، أو في
المناسبات، كتباً صغيرة، ومدها لي ...

حاولت بعد أن أوى الجميع إلى الفراش أن أتصفح الكتب، فاختلطت
عليّ الأمور ... حاولت أن أسيطر على أفكاري، فلم أفلح ... تراقص ضوء
المصباح، فاطفائه .. وتلمست مكاني من السدة ...

سهدت ... استعدت رسالة فادي ... حاولت أن أستوعب ما فيها، فانسدّ
فكري .. «عالم جديد !!! مساواة !!! حرية !!! سجن !!!» تمنيت أن أوقظ
أختي لأسألها سؤالاً واحداً نفكّ رهونه معا ...

طال سهادي تلك الليلة ... وكثر تقلبي ... وجدت نفسي في دائرة امتلات
بأنفاسي ... شعرت بالاختناق ... رفعت الغطاء عن رأسي، وتنفست ... فتحت
عينيّ أبطلت في العتمة فأعشاني نور فضيّ تسرب من السقف ... لعبت معه
الغميضة طويلاً، ولم أعرف متى وكيف نمت ...

وفي الصباح، عندما قممت ... كانت عينايتن تؤلمانني .. وكان رأسي ثقيلاً
جداً ... كدست مع أخواتي الحطب الذي أحضرته أمي من الجبل .. ثم خرجت إلى
الحقل، وحملت معي كتب الطبيب نادر ..

تصفّحتها بسرعة، وشعرت أنني أريد أن أذهب إلى العيادة .. وبدأ لي أن
الطبيب هو الذي سيوضح لي كل شيء ... استقرّ شعوري عزمًا سأسعى إلى
تنفيذه فرفعت رأسي باعتماد، واستنشقت الهواء طويلاً، ونفثته براحة من
أراح عبتاً ثقيلاً عن كاهله ..

انشرحت نفسيّتي، وتسربت الابتسامة إلى ملامح وجهي، فشعرت
بقسماتي تنفرج وتنبسط. وانتابني زهو مريح، فقفزت من مكاني بخفة،

وطفقت أدندن وأنا عائدة إلى الكوخ، وقد بدا أجمل من أي وقت مضى ..
تلك اللبقة ... ثرثرت كثيرا حتى استغرب الجميع ذلك مني ... ونعت
مبكرة ...

وجدت نفسي أسير في طريق طويلة جدا، تحفّ بها الغابة الكثيفة،
فتظلم حيناً وتشعّ ... رأيت عن بعد شبحاً يتقدّم، لكنني لم أخف منه واقتربت،
فبدا لي الوجه مألوفاً لكنني لم أتذكر ملامحه جيداً ... تعرّض لي ... حاول منعي
من مواصلة سيرتي ... أمسكني من كتفي وشوش بصوت دافئ :

« غزالتي البرية ... »

لم أرد .. واصل :

« يجب أن تتبعيني ... الطريق مخيفة ... »

أنزلت يديه بعنف، وأردت مواصلة سيرتي، فلوى ذراعي، فحاولت
التّمسك منه ... شدّد قبضته، وفتح فمها مخيفاً، والتصق بظهري ... وضع
ذراعه حول عنقي، وضغط ... اختلج نفسي ... جفّ حلقي ... وشعرت برغبة في
الصّراخ، لكنني لم أستطع ... حاولت بكلّ قوّتي أن أتخلص منه، فسقطنا أرضاً
... وبجهد اليائس، بحثت يدي عن شيء فوجدت خشبة، فاقويت بها على رأسه،
فارتخت عضلاته ... وانفلتت راضية <http://Archivebeta.net>

وشيناً فشيناً، أعاد لي الحلم نفس الهدوء الذي سرت به في أوّل طريقي
.. فتفتّخت إلى أنّني أمسك بيدي خشبة عليها بقع حمراء فاستعدت صورة
الوجه المألوف، والدّم يتدفّق من رأسه، فلم أشعر بالألم، ولا بالخوف ... أحسست
أنّ ما قمعت به ضرورة لا بدّ منها ...

جلست على الأرض، وآلم يستبدّ بساقي، وعطش معضّ يلهبني، فتلفتُ
حولي أبحت عن الماء، فترامى إلى سمعي خرير جدول مجهول ... وإذا بيد
تحرّكتني، فاستفتحت لأجد أمي تناول أبي كأساً من الشاي وقد علته الرّغوة
البهضاء ...

غادرت فراشي، وقد ازدادت اقتناعاً أنّ أحلامي أضواء لأحداث سالاتها
في حياتي. نظرت إلى حقيبتتي. تذكّرت الودع، فقمت أنفقده ... اشتّم فيه
رائحة توأمي، فلم أجده ... صرخت وقد شعرت بالوهن :

« أين ودعي ؟؟ من أخذه ؟؟... »

نظرت إليّ أمي، وقالت ببرود :

« لقد ألقيت به في البئر ... »

ارتفع أنبني ... أحسست دبب الموت يصاعد من أقدامي حثيثا ...

أسرعت إلى البئر ... جرى أبي ورأني ... تبعه أخي وأمي ، وبقية
أخواتي ... سمعت الضجيج ورأني يتعالى، ثم يتباعد شيئا فشيئا حتى اختفت
تماما ..

عندما انتبهت، كان الوقت صباحا ... تلفت حولي كان الجميع يبكون :
أمي مندوبة الخدين، أبي معصب الرأس، وأخواتي مصفرات الوجوه، أما أخي،
فقد جثا عند قدمي أحمر العينين... وجوه عديدة أخرى تطلّ من عتبة الباب
ارتكزت على مرفقي، ونظرت إلى الجميع بعينين حائرتين ... فتراقت
ابتسامة خائفة على الشفاة البائسة ... تمتعت، وقد عدت إلى النوم :

« إنني عطشى ... »

تعرّثت أمي، وهي تقوم، فانكبّت على ركبتها، فقفز أخي ... شقّ الوجوه
المطلة ثم عاد بسرعة يحمل كوبا من الماء...
<http://Archiv3.com>

في المساء، قدّم لي والدي قارورة عطر، وحضنتني أمي، ثم قبلتني ...
وقدّ أخي صوت الديك، فضحكنا ... كم ضحكنا تلك الليلة.. وقبل النوم خضبت
أخواتي يديّ بالحناء ... ولم يوقظني أحد إلى ساعة متأخرة من نهار الغد ...

قدّمت لي أختي بيضا مسلوقا، وزبدة، وخبزا ساخنا، وقالت :

« هذا فطورك ... يجب أن تأكله وحدك ... »

فاستغربت ... ضمّنتني إليها في براءة وحبّ وواصلت :

« لقد أحضرناه لك جميعا .. »

أمسكت بها، وأجلستها بجانبني قائلة :

« شاركيني الأكل ... »

فتربعت تلطمعني .. قلت لها :
« أشعر برغبة في التَّنَزُّه في الغابة ... »
نظرت إليّ، والرَّعب يملأ وجهها وردَّت :
- ارجوك ..

قلت مطمئنة :
- « لا تقلقي أختي ... »
قالت : « أرافك »
قلت : « لن أبتعد كثيرا ... »
ثم تركتها، وخرجت، وعلا صوتي محدِّرا :
- « لا تتبعيني ... »

كان الفصل صيفا .. وكانت الحرارة على أشدها ... توغلَّت في الغابة ...
تذكَّرت عبثي وشراستي. استعدت أيام الانطلاق، واشتقت إلى البرك الممتدة
بين الأشجار، نسوق الأبقار إليها لتشرب، وفرتني بين أحضانها واصلت
تجوالي ... التقلعت الحصى، ورميت عاليا كما كنت أفعل في الصغر ...

هبت نسمة رطبة، فغرقت أن الماء قريب ثم تناهت إلى سمعي كركرة
وضجيج، فاقتربت ... كان هناك ثلاث راعيات في مثل سنِّي، قد نزعن ثيابهنّ،
وتراشقن بالماء ... شيء ما عندهنّ أدهشني، وبحركة لا شعورية تحسست
صدري ... لم يكن مكورا مثلهنّ ... رفعت ثيابي برعب لانتبَّت ... فلم ألحظ غير
رضوض زرقاء وأشياء أخرى...

لم يتوجَّ صدري بثديين مثل بقية الفتيات وإلى حدّ تلك اللحظة، لم أكن
أعي ذلك، ولا أتذكّر يوما تعريّت فيه أمام أخواتي ... بللّني عرق بارد، فتبخَّر
جهدي ... نظرت إلى الراعيات يلعبن بالماء ... وبدت أن أقترِب من واحدة منهنّ
لألمس العضو المكور الذي أفتقد ...

بقيت مدةً مبهورة، أعجز عن فعل أدنى حركة، ثم تملكني دوار، ولقّني
طنين حادّ ... ولا أدري هل صرخت أم لم أصرخ ... ثم تناهت إلى سمعي أصوات
غامضة ... وبدا لي أنني أرتفع إلى فوق ... وكأنّني أوضع على نعش ... ثم أنزل
إلى قبر مظلم ... ثم يتحوّل القبر إلى بيت ... فيمتلئ الجو براحة عطرة، ثم

مخنقة ... ثمَّ كانَ وجوها تطلُّ عليّ، ثمَّ تنسحب ... ثمَّ تتراقص الصُّور أمامي،
فأسمع أصواتاً غريبة كأنَّها التَّرتيل .. وأشعر بيد محدَّدة تجول فوق صدري،
وكأنَّها تحفر تحت الجلد، فأرغب في الصَّراخ لكنِّي أعجز عنه ...

وبدا لي وسط هذه الأجواء الغامضة من الضَّباب، والتَّرتيل، والوخز ...
أن أقوم، وألتفُّ بلحاف، وأنفقد رسالة فادي، وأمرُّ بين الوجوه المشوَّهة التي
شعرت بها تتبعني، وأتوجَّه إلى عيادة الطَّبيب نادر ... وكانَ غشاء انزاح عن
عينَي ... بدأت أستعيد بصري، وقدرتي على التَّفكير ... فإذا بي مدَّدة على
فراش أبيض، وصدري مشدود بضماند وأربطة، والطَّبيب نادر، والمرضة
يبتسمان لي بحنان .. ووجه ثالث جميل وحزين يطلُّ من وراء

إنَّ وجه فادي .. صرخت من الفرح والألم، وناديت، والدَّموع الدَّافئة
والغزيرة تغسل وجهي :

- فادي ... يا فادي ... -

أمسك فادي بيدي .. ضغط عليها.. قبلها وانحنى ليخفي دموعه ... فتحت
فمي لأسأله أمورا كثيرة، فوضع أصابعه على شفتي .. تلمسهما بحنان وقال :

- لا تتكلَّمي أحيِرتي الحزينة .. لقد وقف قطارُك ... -

ولم أصدُق .. وظلت دموعي تغسل أوجاعي وأنا أتمت بكلمات حائرة ... ثمَّ
بدأت عيناَي تنغمَّسان بفعل التَّخدير .. وقبل أن أغرق في النُّوم، التقطت
أذناي وشوشة دارت بين اثنتين :

-والآن يا صديقي ... لا بدَّ أن تعود بسرعة لقد جازفت بخروجك
اليوم...-

-سأذهب .. أوصيك خيرا بالمريضة ... جدِّد لها الأمل في الحياة...-

وأخر جملة سمعتها :

- لم يبق إلَّا القليل يا صديقي .. هيا بسرعة ... -

حفيلة القاسمي
قصة - القصيرين
1992 1985

كان

كل شيء يسير سيره
العادي الرتيب داخل المنجم.

المصابيح الكهربائية المعلقة
بالسقف ترسل نورها الأصفر الضعيف
من خلال طبقة الغبار الرقيقة الناعمة
التي تكسوها، أصوات المعاول والغفوس
وهي تنقر في جوف الأرض فتفتته
وتحوّله إلى طوب وتراب ما أن يتجمع
بالقدر المناسب حتى يقوم بعض العمال

الانتصار الموهوم

برفعه وتعبثته في العربات الصغيرة الواضحة على السكة الحديد غير بعيد
وكلما امتلات إحداها تقدم عامل لدفعها خارج النفق حيث مركز التجميع.

كان الجو يبعث على الاختناق بموقع الحفرة، الحرارة مرتفعة، الهواء ثقيل،
الغبار يملأ الفضاء، أصوات عالية متداخلة تكاد لا تتوقف، أصوات الغفوس
والمعاول وهي تنخر في جسم النفق، والرفوش وهي ترفع الطوب والتراب
لتلقي به في العربات، صرير عجلات العربات عند احتكاكها بقضبان السكة
الحديد في غدوها ورواحها، لغط العمال وصخبهم الذين إن رأيتهم حسبته
طائفة من الجن بملابسهم الخشننة المتربة، ووجوههم المعفرة المبللة بالعرق، تشع
من فوق جباههم أنوار مصابيح كاشفة ثبتت بخوذاتهم الفولاذية الواقية.

فجأة ترتج الأرض وتضطرب، ويملا المكان دوي رهيب، تتكسر الحواجز
الخشبية القائمة على جانبي النفق ويعرض سقفه صونا له من التصدع
والتداعي.

تعمّل النور، وساد الظلام إلا من بعض البؤر هنا وهناك صادرة عن تلك
المصابيح الكاشفة التي يحملها العمال.

عَمُ الفزع والهلع، علت أصوات الاستغاثة والشجدة تخالطها النداءات
وصيحات التوجع هنا وهناك.

زادت حرارة الجو، ثقل الهواء داخل النفق. وتمر الدقائق طويلة قاسية
كأنها الساعات ينتبه سلطان من غشيته، يصاب بالغثيان، يشعر بألم حاد يساقه
اليسرى الظاهر أنها كسرت يعمد الى النهوض فلا يقدر، يتلفت حوله فيرى
على ضوء مصباحه الكاشف الذي سلم من العطب رفيقه عليوات ملقى على
ظهره مكشوف الرأس قد غمر الركام جسمه حتى الصدر وغطى التراب وجهه
فأخفى ملامحه.

تحامل على نفسه وزحف نحوه مغالبا ألمه، لما بلغه انحنى عليه وشرع
في إزالة التراب عن وجهه ثم أمسك بكنته وحركه برفق مناديا :

- عليوات !! عليوات !! عليوات!

فتح عليوات عينيه وتطلع في وجه صديقه من خلال أهدابه المتربة
وهمس :

- من .. ؟ سلطان. ماذا وقع. ؟

- لقد حدث انهيار بالمنجم.

<http://Archivebeta.Sarhrit.com>

- هل أنت بخير . ؟

الحمد لله على كل حال.

- وأنت ؟

- أشعر بألم فظيع بنصفي الأسفل

- سأحاول أن أرفع عنك التراب، وبعدها ستستريح.

قال سلطان ذلك وأخذ وهو جالس يزيح التراب والطوب عن صديقه
بكلتا يديه متغاضيا عن أصابته الموجهة.

زادت حرارة جسمه، تصبب عرقه، تصلب ريقه، اشتد ألمه، بدأت قواه
تضعف وتخور لكنه لم يتوقف عما شرع فيه.

لاحظ عليوات الوضع الغريب غير المريح الذي اتخذه سلطان في جلسته، واستنتج من زفيره ولهائه العاد، ومن تعابير الألم البادية على وجهه أنه يعاني من شيء ما فساله :

- مابك يا سلطان .. كأنني بك تخفي شيئا .. ؟

- الظاهر أن ساقني كسرت.

- ما كان من حقك أن تجهد نفسك وأنت على هذه الحال.

- وأتركك مطمورا تحت التراب ؟

- أشكرك، ويكفيك هذا، دعني كما أنا، إنني أحسن حالا الآن.

- لم يبق الا القليل، لحظات فقط وأستريح.

مرت هنية قبل أن يتراجع سلطان إلى الخلف قليلا حتى يتمكن من إدخال يديه تحت ذراعي عليوات عند مستوى الأبطين لجره بعيدا، وفجأة يصرخ عليوات صرخة قوية يهتز لها سلطان من الأعماق فيقلع عن الاستمرار في محاولته متسائلا في انزعاج وحيرة :

- هل أملكك إلى هذا الحد ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ويجيب عليوات بصوت يفيض ألما :

- أشعر كأنّ نصفي الأسفل يوشك أن ينفصل عنيّ لقد أصيب عمودي الفقري بالتأكيد.

- لا تقل هذا يا رجل، ان هي سوى بعض الرضوض والكدمات البسيطة لا غير.

- لا يمكنك ان تتصور مبلغ الألم الذي أكابده، أرجوك دعني حيث أنا الى أن يقدّر الله أمرا كان مفعولا.

- كما تشاء.

- بي عطش شديد، هل يوجد ماء ؟

- لقد غمر التراب كل شيء.

- ليفعل الله ما يشاء.

- لا تقلق، لن نمكث هنا طويلا، سوف يأتون لانقاذنا.

- متى .. ؟ بعد أن ينتهي كل شيء أين تظن نفسك، في اليابان أو ألمانيا ؟
كم اغتال الموت من رجال قبلنا في سراديب هذا المنجم.

- هل كتب علينا أن نموت مثلهم نحن أيضا ؟.

- لدى إحساس قوي بأنني مفارق هذه الدنيا بعد قليل ، وقبل أن أودع
أحب أن أفضي اليك بما في نفسي وأبوح لك بسر ما عدت احتمل كتمان
عنه.

- ألا ترى أن الوقت غير مناسب للكلام في مثل هذا الأمر، فلنرجيء ذلك
الى فرصة أخرى.

- للأسف الشديد سوف لن تكون هناك فرصة أخرى، بالنسبة الى على
الأقل.

- ما دمت مصرا على الكلام فهات ما عندك.

يخيم الصمت هنيئة ثم يعود عليوات الى القول وقد تهدج صوته :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- إنني اعلم مسبقا بأن ما سأقوله لك لن يكون وقعه هيئنا عليك ولكن لا
بد مما ليس منه بد.

- من يسمعك تتحدث على هذا النحو يعتقد انك ميتٌ لحينك.

- وهذه حقيقة.

- لقد أثرت مخاوفي بكلامك عن الموت.

- الموت حق وعدل، وتأكد بأنني لا أتهيب مواجهته، الحياة جميلة ساحرة
جديرة بأن نحبها ونحياها، ولذلك فانا لا أنكر عليك تعلقك بحبال الأمل في
النجاة، رغم الوضع الذي نحن فيه

وفي حركة مفاجئة يهم سلطان بالقيام فيصرخ من الألم ويسقط على
الأرض وهو يئن ويتوجع لكن ذلك لا يمنعه من القول وقد طفى عليه فرح
طفولي :

- إني أسمع هدير جر Kafat بالفارج .. لقد جاءوا، ألم أقل لك انهم سيهيجون لنجدتنا .. اصغ جيدا يا عليوات ارفف السمع حتى تتأكد .. الحمد لله، لقد جاء الفرج أخيرا ويستند الى العائط وهو يلهث ويتلوى

ويأتيه صوت عليوات خافتا متقطعا :

- لا تفرط في التفاضل كثيرا يا صديقي، التفق طويل كما تعلم ولا نعرف حجم الانهيارات التي حدثت به، والخطر ما يزال قائما ولا ندري ما الذي يمكن أن يحدث بين لحظة وأخرى.

- أنا واثق من نجاتنا ولو بعد حين.

- ذلك ممكن اذا حدثت معجزة وقد ولّى عصر المعجزات وانقضى، اذا نحن سلمنا من الموت تحت الانقراض فسوف نموت اختناقا، لقد صرت أشعر بانفاسي تضيق أكثر فأكثر، ولا شك أنك مثلي تعاني مما أعاني.

- كم أنت فظيع ومزعج رغم ما في كلامك من الصدق

- لم يعد أمامنا الا انتظار الموت فهو الممكن الوحيد.

ويركن عليوات الى الصمت وقد نال منه التعب، وتظل أصوات الجرافات تتردد من بعيد خافتة منتظمة مختلطة بأناث وأهات وغمغمات من لم تعالجهم المنية.

ويعود عليوات الى القول وقد ازداد صوته وهنا وضعفا :

- لقد نشأنا في حي واحد، وتعلمنا بنفس الكتاب ونفس المدرسة، وانقطعنا عن الدراسة في وقت واحد تقريبا، والتحقنا بالعمل بشركة المناجم في ذات العام، حتى زمن زواجنا كان متقاربا، وتأبى الاقدار الا أن نكون متجاورين في المسكن بالحي الجديد.

لم نفترق كل هذه السنين رغم خلافتنا المستمرة.

كان التنافس محتدا بيننا منذ أيام الطفولة، لاهم لأحدا إلا سبق الآخر والتفوق عليه .. في اللعب، والدراسة، والعمل، في كسب مودة الأصدقاء، وثقة الرؤساء.

وكان التفوق والتفوق حليفك دائماً، حتى في الزواج كنت أسعد منّي
حظاً.

قال سلطان في شيء من التبرّم والضيق :

- كلّ هذا الذي ذكرته أعرفه، وبعد ماذا تريد أن تقول أيضاً ؟

يجيب عليّوات بعد أن يرطب شفّتيه بلسانه وقد اشتدّ عطشه وزاد ألمه:

- إن سراج حياتي موشك على الانطفاء، ولا أحب أن أغادر هذه الدنيا
قبل أن أعترف لك بما أجزمت في حقك.

لقد استقرّ بذهني في لحظة جنون تحت تأثير إحساس طاغ بالضعف
والخيبة والهوان تجاهك أن أثار لنفسي منك وأتحدّى تفوّك على بتلطيخ
شرفك، وصدّقني أنني ما أردت باعترافي هذا لك إهانتك والتشفي منك أو
تسميم أفكارك وتعكير صفو حياتك، لكن بعد هذا الذي حدث تملكني شعور حاد
بالندم بعد أن اكتشفت فداحة الجرم الذي اقترفته في حق الصداقة والعشرة
والجوار.

يصرخ سلطان في انفعال وهو يحاول كضم غيظه وقد أثار كلام عليّوات
ريبته وشكوكه :

- أفصح .. هات ما عندك، إنك تذهبن بكلامك المبهم هذا،
<http://Archiveheta.Sakhrit.com>

يسود الصمت لحظة ثم يتكلم عليّوات مغالباً ألامه المبرّحة وقد بدا وكأنه
يصارع الموت :

- لقد استدرجت زوجتك وأغويتها

- ماذا تقول ويحك. ؟ زوجتي نوال .. ؟

- كان عملاً خسيماً بشعاً .. وها أنا ألقى جزاء ما صنعت

صعق سلطان، تصاعد الدم الى رأسه، زحف نحو عليّوات وانقض عليه
وقد عصّف به غضب جارف مدمم كذنب جريح :

- نذل .. جبان .. جبان .. قل إنك تكذب وما أردت إلا إيلامي .. لكن لا، إنّ
الإنسان لا يكذب أبداً وهو يواجه الموت ولا يخجل من الاعتراف بأخطائه مهما

عظمت ساعة النزاع الأخير. ويمسك برقبتيه يروم خنقه لكنه يكتشف أن الموت قد سبقه إليه.

حدّق في وجهه المعرّ وعينيه الجامدتين وخيّل إليه أنه لمح فيهما نشوة التشفّي والانتصار ودون أن يشعر مديده وأغمضهما.

تهالك على الأرض في انهيار كمن فقد حواسه جميعا دفعة واحدة، واستند بظهره إلى حائط النفق وقد اغتسل جسده عرقا نسي ساقه المكسورة وما ينتظره في ذلك المكان الموحش المظلم الذي بدا له كقبر كبير، قد ملأت كلمات عليوات وصورة نوال فكره وخياله.

استمر على تلك الحال بعض الوقت ولم ينتبه من ذهوله إلا على صوت طقطقة بعض الحواجز الخشبية أعقبها حدوث انهيار جزئي بمكان ما من المنجم.

أجال نظره هنا وهناك ليستقر آخر الأمر على الجسد المسجى أمامه، ويردد في مرارة وانكسار :

- ها أنت قد انتصرت علي في نهاية المطاف.

وفجأة ينفجر ضاحكا في هستيريا، ولما هدأت سورتته تنهّد في عمق من قلب يتلظى، وعاد يخاطب الجسد الساكن سكوتا أبديا <http://www.archive.org>

- لقد فعلتها أنا أيضا مع زوجتك، لم أكن أعزّم اليوح لك بالحقيقة ، أما بعد سماعي لاعتراك فقد عزمت أن أفعل حتّى أرد اليك طعنتك، وأمتع نظري بمرآك وأنت تحترق وتتعدّب بلوعتك وباحساس الزوج المضلل المخدوع.

لقد خدعتنا أنفسنا طويلا حتى جهلنا أن المنتصر فينا مهزوم وأن الموت هو المنتصر الوحيد في النهاية.

محمد القموسي الحناشي

حسنی سید لبیب

... واستبقت صورتها

مضت

معي ...

دعوتها أن نلتقي لقاء
آخر، كي أعطيها رسائلها والصور.
رمقتني عيناها، أسقط في يدي.
تمتعت شفتي بصوت داخلي لا
يسمع عجزت عن البوح بما أريد .
أبت أن تعدني بقاء جديد. وأصرت
على أن يكون لقاء الصدفة، هو

ناني الخالية

اللقاء الأخير.

واحترقت مع الذكريات. عدت إلى البيت حطام جسد، أقلب
في رسائلها، وأرسل إلى الصور <http://Archivebat.com>

رسائل حب صادقة أحس بصدقها في كل كلمة، ومن رائحة
الورق، وصورتها قبالي، عيناها اللامحتان، الضاحكتان، كيف
انقلبتا نهرين يبكيان الحب الغارب ؟

مضت في طريقها ..

وسرت أنا في غير طريقي !. سرت وحدي . افترقنا، دون
كلمة تحية، أو ابتسامة ... كلانا جريح. ناني الخالية .. يا أعز نداء
شدت به . ترى ، هل تستبقي رسائلك عندي كي تظل ذكرى حبنا
باقية ؟. هل تستبقي صورك، كي تمثلي في خاطري حين يشد بي
الوجد ؟. ورسائلي، ما مصيرها ؟. هل تحتفظين بها، أم ألت إلى
النار، واحترقت حروفها الخضراء ؟. هل يشدك الحنين إلى
سطورها ؟ أم انزوت في ركن معتم، وتراكت فوقها أتربة

وكلماتي .. ماذا يعن لك ، وأنت تقرئينها الآن ؟. كتبتها
بذوب فؤادي، وأعصابي المرهفة. كتبتها لحنا من ألحان هوانا. لا،
لم أغالط. ولم أكذب.. فأنت حبي، وأغلى ما أملك. أنت كنزي، وان
حجبتني عني ألباس الحياة ومنطقها الأعرج.

مضت نائي في طريقها، خطواتها حزينة. وسرت وحدي
كاسف البال. خيوط العنكبوت تلتف حولي ما زال الأمل معقودا
على لقاء آخر.

الذكرى تشتعل في ليلي الحزين. ونائي الحبيبة، الغالية،
ما زالت ترقني في صحوي ونومي. ما زالت تشعل النار في
دمائي. النداء الحبيب، بت أشدو به وحدي أعزفه معزوفة نسجت
أنغامها من حبنا الدافئ.

كنت سائرا على غير هدى. ذات يوم من أيامي الحزينة، بلا
رفيق. أراها في كل مكان. كانت لنا ذكريات في كل شبر من
الأرض. هذا المشرب كم جلسنا فيه وتطارحنا الغرام، كم ضحكنا،
كم تبادلنا الشوق أنغاماً شجية !. وهذا الطريق، كم زرعه جنة
وذهابا، ولا نعل أبداً، وفي كل مرة، نكتشف أننا بحاجة إلى معاودة
السير فيه !. وحديثني حبيبة القلب عن سر هذا الطريق، ذي
الأشجار الخضراء الوارفة الظلال، ونظل نسير. ذراعانا
متشابكان، ويدانا متعانقتان. ودار (سينما)، كم ولجنا بابها،
واخترنا مقعدينا الأثيرين.

تلقتني، فنتبادل رسائل الحب، فلم تكن اللقاءات تكفيها.
فنظل ساهرين والنجوم تحرسنا، تتلأل على صفحة السماء،
والبدر يضحكنا، يشاركنا السمر، ينشر نوره الفضي على
جسدينا.

كنت سائرا أقتات ذكرياتي، عازفا عن عالمي الذي حولي،
فاذا بها قبالي، نائي أمامي، ويا لها من صدفة عذراء !. التقت
العيون، وارتعشت الشفاه، أسقط في أيدينا. كلانا لم يدرك ما

يقول. كلانا مشدود الى الآخر، برغم الظنون التي لعبت برأسينا، وقوضت أحلامنا. وحين تلفتنا حولنا. أصغنا السمع لأقاويل الناس، وادعاءاتهم. وتهدم معبد الحب في لحظة !. ما بنيناه في سنين، تقوض صرحه في لحظة !. ما أبعد خيالنا عن هذا التصور، ونحن الذين تجاوزنا السحب بأغانينا العذبة !. طائر الحب الذي أطال التحليق فوقنا، قد تكسر جناحاه، ولا يملك غير الدموع باكيا عهد الهوى وقد أصابه ما أصابنا من كمد.

ناني الغالية، هي الواقفة قبالي، لكنها الحب الذي اندثر من على خريطة الحياة، وما زال نابضا بصدري، ما زال يشع النور الطهور في وجداني.

سارت بجانب صامته، لا تتكلم، أسرع خطواتها. رجوتها أن تبطل، أو تشاركني جلسة هادئة.

ومض شعاع الحب في عينيها، مازالت عيناها محتفظتين بقبس من نور الحب. رنت لي صامته.. ثم تمتمت :

ARCHIVE
- كل شيء نصيب.

ولعنت الأقدار العمياء. سحق لها ناني، يا أغلى نداء، الحب أبقى من كل شيء. الحب أسمى من كل شيء. الحب أغلى من كنوز الذهب، الحب. الحب. الحب. أوه يا ناني.. لو تسمعين ندائي !. لكنك ارتضيت الصمت، ولا تخرجين منه الا لاما، بعد أن كنت تملئين المكان بكلماتك الحانية الدافئة. انه النصيب. انها الاقدار العمياء. انها الحياة. وبرغم صمتك، اقرأ في عينيك أشياء جميلة ما زال الحب نابضا في عروقك، مشرقا في عينيك، ما زال الحب حيا شاخصا أمامك.

دثرت أحاسيسي بأردية الصمت الثقيلة، قضيتي خاسرة، وحين حدثتها عن رسائلها والصور، عن أشياء غالية أصبح من واجبي ردّها صممت.. وعرفت من صمتها أنها تستبقي شيئا على سبيل التذكّار.

ارتعشت شفتها، ولم تجد جوابا. قلت في قوة :

- دميك من رد الرسائل والصور. ولنعد كما كنا. لنكن أقوى من الظروف.

تمتعت بصوت واه :

- لكننا، لسنا أقوى من الأقدار.

- هي من صنعنا !. أليست ظنوننا هي الأصل فيما حدث ؟.

- لكن الظنون صنعت الأباطيل، وصدقها الناس.

- لا يهمني الناس.

- تعقدت المشكلة، وفات أوان الحل والربط.

- التسامح رسالة الأنبياء.

- لسنا في زمن المعجزات.

- أقول التسامح رسالة الأنبياء.

- للناس ناموس يتعاشون به، وشنق منهم.

- قد يكونون كفارا !...!

- لا تنس أننا بشر...

- ولا تنس حبنا. الحب نور. الحب قدر. الحب ايمان. الحب عبادة.

صمتت، ارتعشت شفتاها من جديد. حارت في الجواب.
حيثني بإيماء برأسها، وخطت بعيدا عني. لكنني هرولت في أثرها، قلت :

- لك عندي رسائل وصور، أريد أن أردّها.

- فيما بعد ...

- متى ؟.

ومقتني عيناها الجريئتان. وانبجست دمعتان، صنعتا
لؤلؤتين تتألقان على خديها. أشاحت وجهها كي تحبس المزيد من
الدموع. ثم رفعت قامتها، ومضت في طريقها، جمعت مكاني
لحظات. مات الموعد في شفيتها. وانتحرت بقايا الكلمات في جوف
حلقي. تباعد ظلانا، وظلا يتباعدان. وفي كل خطوة أخطوها بعيدا
عنها، يزداد خفق قلبي والتياغي، ويزداد حنيني.

ولكن ... طائر الحب المهيض الجناحين، لم يعد قادرا على
التحليق!

حسني سيد لبيب.



مصطفى الكيلاني

الْمَنْقَى أَوْ حِكَايَة صَالِحٍ كَجَا جَة وَمَخْبِرِيْهِ فِي « قَسْلَة » الْمَوْتِ وَالْخَرَابِ.

السَّكَاكِينُ

وإنَّ شَحَدُوَهَا عِيدَانُ قَصَبٍ
وهذا الْحَرُّ عَرِيضٌ فِي
خَلَوْتِهِ وَالْمَوْجُ خَافَتِ
وَالسَّمَاءُ صَحْرَاءُ ...

تَطَأَ قَدَمَاكَ أَرْضَهَا فِي بَدْءِ
لَيْلِ الْبَارِحَةِ. جِدْرَانِ خَرِبَةٍ. فَرَاخُ الْهَائِطِ
تَطَايِيرُ مَذْعُورَةٍ. تَفَرُّ مِنَ أَلْسِنَةِ الشَّعَابِينَ
وَنَقِيقِ الضَّفَادِعِ الْمَفْقُودَةِ الْأَعْيُنِ. وَجُوهُ
مُتَشَابِهَةٍ. قَامَاتُ مُتَشَابِهَةٍ. أَيَّامُ. أَعْوَامُ.

فَرَقَعَتُ سَيَاطِ. أَصْوَاتُ الْجَلَادِينَ تَرْتَفِعُ فِي نَارِ الْخَرِيقِ. مَدُنُ تَوَارِيخِ هَازِمٍ
شَتَّى وَالنَّفَقُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ يَضْحَرُ مِنْ كَوْنِهِ فِي أَعْلَى الْجِدَارِ الْمُقَابِلِ. خِيَالَاتُ
نِسَاءٍ مَشْنُوقَاتٍ بِلَا أَهْوَابٍ وَلَا أَشْفَارٍ وَلَا زَعْبٍ. لَحُومٌ بَيْضَاءُ عَارِيَةٌ تَنْزَعُ عَرَقًا
وَدَمًا وَلِلصَّدِيدِ فِي الْأَبْوَابِ وَالنَّوَافِذِ الْمُقَلَّطَةِ رَائِحَةُ السَّهُولِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى مَطَرِ
الْخَرِيفِ. الثَّقُوبُ نَقُوشُ مَوْتَى، جَمَاجِمُ غُرُقَى هَلَكُوا بَيْنَ الْمَوْجِ الصَّاحِبِ
وَسَيُوفِ قِرَاصِنَةِ اللَّيْلِ.

تَسِيرُ خُطَوَاتُ بَيْنِ الْكُوَّةِ فِي أَعْلَى الْجِدَارِ وَبَيْنَ الْبَابِ الْحَدِيدِيِّ الضَّخْمِ.
تَخْتَرِقُ عَيْنَاكَ الْمُتَعَبَّتَانِ قُبُورَ السَّرَابِ وَتَنْكَسِرُ الْأَشْعَةُ عَلَى الْأَرْضِ الْإِسْفَلْتِيَّةِ
هَزِيلَةً كَالْجِرَاءِ الْمَقْرُورَةِ فِي حَلْمِ الزَّقَاقِ.

« الْقَسْلَةُ » سَجَنُ شَفَقِي يَنَامُ فِي آخِرِ الْحَدِّ دَاخِلَ سَهُولِ الْخَرَابِ. حِينَمَا
تَطَأُ قَدَمَاكَ أَرْضَهُ يَعْشَشُ فِي قَلْبِكَ حُزْنٌ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ وَتَعْنُ لَكَ بَيْنَ النُّومِ
وَالْيَقِظَةِ شَعَابِينَ مَكْسُودَةٍ رُؤُوسَهَا بِشَعْرِ أَسْوَدٍ رَطْبٍ وَعِقَارِبُ صَفْرَاءُ وَطُيُورُ
مَيْتَةٍ بِلَا أَجْنَحَةٍ وَدَمَاءٌ مُتَخَفِّرَةٌ.

مَمَرَاتُ تَفْضِي إِلَى مَمَرَاتٍ وَأَبْوَابُ حَدِيدِيَّةٍ تَفْتَحُ عَلَى أَبْوَابِ مَطْلِيَّةٍ

بالدهن الأخضر، والشبابيك قضبان والسماء ريح وغبار.

مَمَرَات تُفْضِي إِلَى مَمَرَاتٍ وَمَمَرَاتٍ وَأَخْرَ الْحَدَّ حَشَائِشُ طِفْلِيَّةٍ
وَأَشْوَاك «السَّكُوم» وقطعان غنم وأحمره شريفة وسواد اللَّيْلِ.

(يَوْمَ الْقَوَا بِهِ فِي الزَّنْزَانَةِ الْعَاشِرَةِ بَعْدَ الْمِائَةِ وَدَعَّ آخِرَ الْأَصْدِقَاءِ وَأَحْرَقَ
رِسَالَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ كِتَابِهِ سِوَى أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ «وَالْإِيضَاح...» وَ«مَا الْعَمَلُ»
لِلْيَنِينِ فِي طَبْعَةٍ شَعْبِيَّةٍ سَرَقَهُ لِرَفِيقِ غَيْبَتِهِ الْمَسَافَاتِ وَشُؤُونَ أُخْرَى ...)

تَبْدَأُ مُغَامَرَةُ الدَّخُولِ إِلَى «الْقَشْلَةِ» .. تَطَأُ قَدَمَاكَ الرِّبْعَةَ الْأُولَى وَقَلْبُكَ
مَسْكُونٌ بِأَمَلِ الْوَصُولِ إِلَى آخِرِ الْحَدِّ.

تَرْمُكُ الْكَاتِبَةَ بِحَقْدِ رَثِيسِهَا. تُغْلِقُ فِي وَجْهِكَ بَابَ مَكْتَبِهَا. فِي الطَّرِيقِ
الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى صَالِحِ دِجَاجَةِ مَدَارِجِ وَالتَّوَاتُؤَاتِ وَأَكْدَاسِ مَلَفَاتٍ وَوِثَاقٍ رَسْمِيَّةٍ
وغير رسمية وأخرى محفوظة في السَّرِّ بَعِيداً عَنْ أَيْدِي عَامَّةِ الْمُوظَّفِينَ ...

- ها .. ها .. ها .

ضَحِكَاتُ السَّكْرِ يَتَبَيَّرُ الْبِقْرَةُ يَتَخَلَّلُهَا شَفِيطُ الْقَهْوَةِ وَتَأَوَّهَاتُ عَانِسٍ فِي
الْأَرْبَعِينَ. حَرَكَاتُ فَتَسْرَابِيَةِ. أَعْوَانُ الْإِدَارَةِ يَصْعَدُونَ .. يَهْطِلُونَ .. يَذْهَبُونَ ..
يَجِيئُونَ. سَجِينُ الطَّايِقِ الْأَوَّلِ يَزْعَقُ. التَّصْفِيقُ الْهَتَافُ .. صَالِحُ دِجَاجَةٍ يُحَيِّي
الْجَمِيعَ مِنْ نَافِذَةِ مَكْتَبِهِ. السَّكْرُ يَتَبَيَّرُ تَضَحِكُ بِيضَاءُ كُلُّونِ حَلِيبِهَا. تَرْخِي
أَشْفَارَهَا عَلَامَةً تَفْتَحُ. تَعْرِقُ وَلِرَاكُنَةِ إِبْطِئِهَا نَتُونَةُ الْقَيْظِ.

- ها .. ها .. ها .

صَالِحُ دِجَاجَةٍ وَمُسَاعِدُهُ الرَّجُلُ الْعَجَلِيُّ الرَّأْسُ الْقَطِيَّ الشَّارِبَيْنِ يَمْرُكُنْ مِنْ
السَّاحَةِ الْكُبْرَى إِلَى الْمَمَرِ الْفُضِيِّ إِلَى مَكَاتِبِ أَعْوَانِ الْإِدَارَةِ. لِلْمُسَاعِدِ مَعَ صَالِحِ
حِكَايَةٍ لَا يَعْلَمُ تَفَاصِيلَهَا إِلَّا السَّكْرُ يَتَبَيَّرُ الْبِقْرَةُ عَانِسُ الْأَرْبَعِينَ الضَّاحِكَةُ بِبَيَاضِ
حَلِيبِهَا.

هَيْكَلًا عَظَمِيًّا تَرَاهُ. قَصِيرُ الْقَامَةِ، دَقِيقُ الْأَنْفِ، يُوْهَمُكَ بِأَنَّهُ مُنْتَفِخُ الْجَنَّةِ
وَهُوَ كَمُسَاعِدِهِ قَطِيَّ الشَّارِبَيْنِ عَجَلِيُّ الرَّأْسِ يَتَدَحْرَجُ بِنَحَافَتِهِ الْعَجِيبَةِ،
وَتَتَدَهَّشُ لِلشَّبهِ بَيْنَ الْمَدِيرِ وَمُسَاعِدِهِ. «يَخْلُقُ اللَّهُ مِنَ الشَّبهِ أَرْبَعِينَ».

- يَا أَيُّهَا الطَّالِعُ مِنَ أَقْبِيَةِ اللَّيْلِ هَذَا صَالِحٌ يَتَعَرَّى بِنَارِ غَضَبِهِ دُونَ جُذُورِ.

ينام ساعتين في ليالي الشتاء ويحلم بالمناصب العليا. يفكر في إحراق المكتب العاشر في الممر الثالث كي يرفع تقريراً يتهّم فيه مساجين القسلة بالتخريب....

ينتظر. يُطلق جواسيسه في كل مكان. يُصنّى بأذان رجاله إلى أقوال المساجين في زنازاناتهم. يهّم بتأليف كتاب في العدل والحرية والعقل والعقلانية والذات والصفات والموت والحياة ...

- ها .. ها .. ها -

مُخبِرُ صالح دجاجة حسب الترتيب في سلم القيمة الإدارية : صالح التوام، ضخم الكتفين والعجز أفتس الأنف شاحب الوجه على الدوام، يلبس نظارتين يُخفي بهما أحقاد أعوام، تعلّم كتابة التقارير من شغل قديم في مؤسسة لتربية الدواجن، ودود يصافحك لسبب ودون سبب، تراه دائم التحول من ممر إلى آخر وفي يديه أوراق رسمية وغير رسمية كأن تقول رسائل حب كاذب للجميع ومطالب تشفيل واستدعاءات إلى اجتماعات طارئة وغير طارئة أو تجده مختلياً في مكتب يأكل ما يخطر وما لا يخطر على بالك ..

- ها .. ها .. ها -

وعبد الجواد الحداد، دائم الصمت، ودود هو أيضاً، يُحبّي الجميع بابتسامته الصفراء المتأنقة، يدخن باستمرار، وجهه الشاحب ملغز عميق في لون الخيانة، يحيرك بهدوء صقيعي، حاضر النكتة، ينصب لك فخاخاً عند الرد على سؤال ما، تربيته بصالح دجاجة صداقة من نوع خاص لا يعلم أسرارها إلا الله وكبار المسؤولين المتقاعدین ولا يجهلها صالح دجاجة بالتأكيد.

ويُساعد صالح دجاجة وعبد الجواد جمع من العيون يصعب حصر عددهم كمُختار لنجوبة وعليّ القروّ وهيب فطيرة وعليّ بوسروال ومحمد ناموسة وحسين الكمباري ومحمود الداخ يكتني بوشلوفة وحلومة منانة .. أمّا قائمة المساجين فإنها طويلة كنفق الموت، يتصدرها عبد الله البري من مواليد السهول النائية، أسمر البشرة، نحيل الجثة، يدخن باستمرار، صلب في طباعه حد الرقة اللامتناهية، من أحفاد الدقباجي، تقرأ في ملامحه رجولة حشّاء وغلظة البدو الصادقين وفصول الخصب واللقاح، يسكن الزنازنة رقم 10 في الممر السفلي المغصّي مباشرة إلى مكتب صالح، وعليّ الفلاح سجين الزنازنة رقم 15، قروي

وَرثَ عَنِ جَدِّهِ الْفَلَاحَ أَنْفَةَ الْكَادِحِينَ وَغَضِبَهُمُ الْعَاجِلُ وَسُلَاطَةُ اللِّسَانِ عِنْدَ الْاِقْتِصَاءِ وَالتَّطَاوُلُ عَلَى سَادَةِ الْخِرَابِ فِي مُؤَسَّسَةِ الْمَوْتِ الْجَمَاعِيِّ، وَصَالِحُ الْحَشَنُ وَمُحَمَّدُ الْخَابِي وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ التُّونَسِيِّ مَسَاجِينَ الزَّنَزَانَتَيْنِ 7 و 153.

تَطًا قَدَمَاكَ أَرْضُ «الْقَشْلَةِ». مَعْرَاتُ تُفْضِي إِلَى مَعْرَاتٍ. لَا مَطَرٌ، لَا صَحْوٌ، لَا حُبٌّ، لَا صَدِيقٌ. عَيُونُ صَالِحٍ دُجَاجَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ. تَرْفَعُ بِصُرْكَ عَلَى أَفْقِ الرِّيحِ وَالْغُبَارِ. أَشْكَالٌ عَجِيبَةٌ. رُؤُوسُ أَفَاعٍ مُحْنَطَةٌ. سَبِيلٌ وَلَا ذَاكِرَةٌ. تُعْشَشُ فِي جُمُجُمَتِكَ الْمُتَعَبَّةِ عَنَاكِبُ فِي لَوْنِ السَّرَابِ. تَعْمُضِي إِلَى عِزْلَتِكَ مَرْفُوعِ الرَّأْسِ، وَصَالِحٌ وَأَقْفٌ خَلْفَ زَجَاجٍ نَافِذَةٍ مَكْتَبَةِ الْمَطْلَةِ عَلَى الْجُمُوعِ الْفَقِيرَةِ. يَبْتَسِمُ فِي تَوَثُّرٍ. يَتَقَدَّمُ إِلَى الْمَرَاةِ فِي مَقْصُورَةٍ مَكْتَبَةٍ. وَجْهُ خَنْزِيرِيٍّ تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الْخِيَانَةِ. تُنْفِقُ فِي لَوْنِ السَّوَادِ. هُوَ ذَاتُهُ بِلَا مَسَاحِيْقٍ. يَرْقُدُ الذَّنْبُ. يَسْتَقْبِظُ الشُّعْبَانُ. عِقَارِبُ صَفْرَاءٍ. عَيُونُ ضِفَادَعٍ مَفْقُودَةٍ. غَدْرُ الْأَصْدِقَاءِ. أَحْلَامُ الْكُرْسِيِّ. لَا شَيْءٌ تَبْصُرُهُ الْعَيْنُ الْمَجْرُودَةُ. خَلْفَ السَّتَارَةِ السَّمِيعَةِ عَرِيٌّ جَسَدٌ مُعَلَّقٌ وَالْخَصِيَّتَانِ إِلَى الرِّيحِ وَالزَّغَبِ مُطَّخٌ بِالْوَحْلِ وَالْأَلْيَتَانِ تَحْطُّ عَلَيْهِمَا فِرَاحُ الْحَاسِطِ وَوَجُوهُ عَجَائِزٍ يَضْحَكُنَّ شِعَانَةً.

(اِسْتَقْبِظْ يَا صَالِحُ ! هَذَا أَنْتَ تَلِيسٌ بِدَلَةِ السَّجَانِ. لَا صَدِيقٌ لَكَ مِنْذُ أَنْ حَرَقْتَ سَفْنَ الْعُودَةِ، وَجْهَكَ فِي الْمَرَاةِ. يَا سَوَادَ وَجْهِكَ ! انْكَشِفْ ! تُعَرِّ ! أَنْتَ الْآنَ بِلَا جُذُورٍ. يَتَصَبَّبُ الْعَرَقُ مِنْ جَبِينِكَ. تَفْمَرُكَ مَوْجَةٌ خَجَلٍ. وَجْهَكَ بِلَا لَوْنٍ وَلَا رَائِحَةٍ وَلَا ذَاكِرَةٍ وَلَا مُسْتَقْبِلٍ ...).

- ها .. ها .. ها ..

«الْقَشْلَةُ». خِيَانَةُ الْأَصْدِقَاءِ. أَحْلَامُ جَبِيلٍ تَهْلِكُ. تَسِيرُ مِنْ مَعْرٍ إِلَى آخَرٍ. مَكْتَبُ السَّكْرِيتِيرَةِ الْبَقْرَةِ. بَابٌ يَفْتَحُ عَلَى بَابٍ، الْجَدْبِ. ضَحَكَاتُ مَيِّتَةٍ ..

(اَكْتُبْ بِالْعَرَقِ بِحَرِيقِ الْاِنْفَاسِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى مَطَرِ الْخَرِيفِ. اَكْتُبْ اَتَعَابَ لَيَالٍ مِنَ السَّهْرِ. اَكْتُبْ حَزَنَكَ الَّذِي لَمْ يُثْمَرْ حَيَاةً. هَذَا الْخِرَابُ يَتَّسِعُ فِي ذَاتِكَ الْحَبِيسَةِ وَالْجَزَارُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَالْجِثَّةُ الْعَفَنَةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. هَذَا الْمَبْنَى الضَّخْمُ. لَا ذَاكِرَةٌ. الْفَرَاغُ يَتَّسِعُ بَيْنَ الْكُوَّةِ وَالنَّفَقِ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ وَأَنْتَ تَحْلُمُ بِالْقَمَرِ وَالْبَحْرِ وَمَرَاقِبِ الصَّبَايِينِ وَأَفْرَاحِ الْأَطْفَالِ وَالصَّبَايَا وَالْيَتَامَى وَالْمُومَسَاتِ وَالْكَادِحِينَ وَبِكُلِّ النَّاسِ الطَّيِّبِينَ فِي بِلَدِكَ ..)

يَازْهَرُ اللَّوْزُ تَفْتَقُّ فَهَذِهِ الْحَجَارَةُ النَّاتِئَةُ بِلَا رُوحٍ وَالْأَرْضُ عَاقِرٌ. رِيَا حُ

الشهيلي. سهول الخراب. عيون المخبرين. لا خمر لا حب لا صديق لا طريق. تسير من «القشلة» إلى القبر ومن القبر إلى القبر ومن القبر إلى ملف مرقم في رفء هناك .. (لا تضحك ! نحن عسس الليل صانعو الهزيمة دمك والسكين وحريق غضبنا. لا تشهق ! تظاهر بالفرح ! سرقي نفقك ! لا تتوقف !) المرأة. يسير صالح دجاجة أمامها خطوات ثم يتوقف يلتفت إليها يبتسم. يسير خطوات أخرى ثم يتمدد على سرير هناك في المقصورة الخاصة. ينقبض وجهه. تتسارع أنفاسه. يهتز مركات. يعرق وجهه. ينتفض. ثم يسمع صوت الماء يسكب وتسود المرأة. يتغلق المشهد. ها .. ها .. ها.

توقف !

«القشلة». مركات تقضي إلى مركات ومنها إلى الباب الرئيسي. تنتظر من قفل إحدى الزنانات. عبد الله البري مُمدد على الإسفلت يقرأ كتاباً. حذروه من الاندفاع في طريق حريته. سرير هرم وحذاء وملابس رجال داخلية ومرمدة ممتلئة ببقايا سجاثر، وأمام السرير كرسي وطاولة صغيرة، وفي أعلى الزنانة كوة ولعبة شاحبة ...

(هذا أنت يا عبد الله تحلم «بالدعاجي» وحشاك والشهداء ودموع اليتامى والشكالي وتكتسحك فجأة هور الرعب والدخان والخونات والهاوات وصيحات الأطفال والصبايا والأضواء الساطعة والكراسي// وقد ذاب الأصدقاء والهزائم والخطب و تتداخل المشاهد. تسقط الألوان الأشكال. يصعد صالح دجاجة ميتاً بلا راحة، مُثَقلاً بلا فكر، إنساناً بلا ضمير، تاريخاً بلا جذور...)

- ها .. ها .. ها -

تلمأ قدماك أرضها في بدء ليل البارحة. خيالات نساء مشنوقات والجثث ارتعاشات ضوئية شاحبة على الجدران الخربة. الريح تُعابث الفوانيس. السواد في كل مكان. تنتاب علي الفلأح حالة غضب طارئ. يصرخ. ويرتفع أزيز الرصاص وشهيق سجين يجلد في تسجيل صوتي حرص صالح دجاجة على إنجازه تقنياً بنفسه ضماناً لهيبة كرسيه، ويأمر باستعماله كلما ارتفع في فضاء «القشلة» صوت معارض ..

- ها .. ها .. ها -

الضحك في قشلة الخراب أنواع : ابتسامة هادئة مخادعة صفراء كلون

صاحبها، وابتسامة لطيفة كأنها النسيم تسبق انفجاراً أو تهَيُّيْ لمناورة أو
لكتابية تقرير، وقهقهة متشنجة ...

المساجين لا يقدرون على الضحك. حاول عبد الله البري يوماً الابتسام
حينما أبصر عليّ الفلاح يتهدّد أحد مُخْبِري صالح دجاجة بالضرب. كان الفلاح
يهول والخبر يركض ذُعراً في اتجاه مكتب صالح، تعثّرت قدمه وسقط باكياً.
كاد عبد الله البري يضحك. انقبض وجهه احمرت عيناه. برزت عروق وجهه.
تملّكت غصّة الضحك دون أن يضحك. أمّا الحنش فقد ضحك مرتين فقط، الأولى
عندما تحيل عليّ الفلاح يلبس «بلوزة» ويضع على رأسه «شاشية» ويده
هراوة يقود جَحْشاً يتقدّمه صالح دجاجة، والثانية حينما أبصر عبد الله البري
في زنزانته يلبس ثَبَاناً فضفاضاً وَيَشْبِه جِرادَةً بِسَاقِيهِ النحيفتين. تشقّقت
شفة «الحنش» السفلى لضحكته الأولى ومرض بصداع قظليع إثر ضحكته
الثانية لم يُشَفْ منه إلى حدّ هذه الساعة.

- ها .. ها .. ها.

(احذر من الضحك من التفكير من الكلام من النقد ! لا تتناولك على
أسيادك ! نحن ملوك الخراب ..)

السهول المنيّة والريّح وحشة الليل. يعضي المساجين إلى زنزاناتهم عند
الغروب. هذا عبد الله البري خارج ذُؤَامَةِ الحزن والفراح يَمُخَّرُ عِبَابَ حلم عتيق
و«الدغباجي» على حصانه يندفع في اتجاه الريّح والغيوم المنيّة. يا مدن العشق
القديم ! دم الدغباجي والشفق ورائحة الزعتر. تنفلق أبواب الممرات وللأقفال
صريرها في وحشة الظلام. يصرخ أحد المساجين .. يرتفع شهيق أنشئ. رائحة
الجسد العاري الزغب عشّ الفراخ الشفتان ارتعاشة الفخذين أرجوحة الألم
ولذة العناق. يرتفع الجسدان، ينخفضان. الجبل والطيور المُحلّقة في سماء
الغيار. صرير الأقفال. الباب الحديدي الأخضر. الأسوار العالية. البعوض.
المُخْبِرُونَ. صالح دجاجة بأوراقه الرسميّة وغير الرسميّة. عبد الجواد الحداد
بابتسامته الصقيعيّة العريضة ومختار لنوبة وعلى الفروهيّ فطيرة وعليّ
بوسروال ومحمد ناموسة وحسين الكمباري ومحمود الدائخ الذي يَكْنَى
بوشلوفة وحلّومة منانة يتشمعون حلمك. لا تنزعج ! يرتفع الجسدان. ينخفضان
في حركات مُوقّعة. ينقبض حلمك. صالح دجاجة يَدْعُو مُخْبِرِيهِ إلى اجتماع
طارئ. قد يأمرهم بقتل ولدك. تَراهم في ليل حلمك يشحذون ساكينهم
ويحملونه عارياً إلى مذهب الكتب .. يملكك غضب الخوف حينما تبصر ولدك

بجسده النحيل يرتعش كَسَمَكَة تَلْفُظْ أَمْرَ الأَنْفَاسِ خَارِجَ المَاءِ ...

السكاكين وإنْ شَحَذُوها عِيدَانِ قَصَبٍ، وهذا البحر عريض في خلوته
والموج خافت والسَّماءُ صحراء ..

اكتب بمرارة النفي بعشق اللَّيالي الهالكة بِحُزْنِ الفراقِ الأبدِي بِغَدْرِ
الأصدقاء بِحَقْدِ المُخْبِرِينَ بِفَضَائِحِ صالِحِ دُجَاةٍ بارتعاشة جسدها لحظة العناقِ
بِبَرِّيقِ عَيْنَيْهَا زَمَنَ الاستراحة ! اَكْتُبْ بِدَمِ الدغباجي يسكنك حريقه بِصَمْتِ عبدِ
اللَّهِ البرِّي بِعَرَقِ الكاشمين بأحزانِ العاشقين بالخمرة تشربها قَهْرًا وَلَا طَرِيقَ وَلَا
صديق. !

الباب النفق الكوة في أعلى الجدار

اكتبْ بِأَمَلِ الغد ! سَتَشْرِقُ الشمسُ في رِيحِ الغبارِ. البحرُ. اكتبْ بِهَمْسِ
الموج يتلاحق في خمرة عَيْنَيْهَا المُتَعَبَتَيْنِ ..!

تطأ قدماك أرض «القشلة». تسير في مَعْرَأتها المُتَرَبَّة. البعوض يطأير
وخيوط العنكبوت تتدلى من السقوف الخربة. ضوء شاحب كَلَوْنِ حُلْمِكَ الأخير
تلفظه وزنات السجين رقم 2453.

صرير الأقفال وعويل الرِّيحِ وصراخِ عَلِيِّ الفَلَّاحِ وضحكات صالِحِ
الهستيرية ...

تُغْلَقُ الأبواب في تلك الليلة قبل ساعة من التوقيف المعتاد .. يتناول
المساجين وجبة العشاء مع مُنَوِّمٍ ثَقِيلٍ ... يدعو صالِحِ دُجَاةٍ مُخْبِرِهِ إِلَى اجتماعِ
سَرِّيٍّ آخر في مكتبه لَا تُخَاذُ مَوْقفٌ عَاجِلٍ.

«القشلة» الواجهة ضَبَّةٌ لِتَرْبِيَةِ الدواجن وبعض الحيوانات الأليفة،
والأماكن الخلفية مكاتب إدارية ووزنات ومساجين ... ولا أحد من المسؤولين
يدرك عَمَقَ الفاجعة.

«القشلة». يُخَيِّمُ الصمت على المكان. تنطفئ جميع الأضواء إِلَّا لَمَعَانِ
خافت يلفظه مكتب صالِحِ دُجَاةٍ في صحراء ليلٍ بِلا حُدُودٍ ...

كان ذلك في ليلة العاشر من أكتوبر من عام الباردة القريبة...

مصطفى الكيلاني

المغامرة (١)

العنان لساقيه في الأزقة
الضيقة، سقطت عليه
الظلمة، فتوقف عند
حائط هرم، وجهش بالبكاء.

انتفض مرة ثانية، بعينين
ذئبيتين، تلفت مليا...
«لم تكن حلما، كانت فريسة
أخرى».

مغامرات

محمود المشروق

غلبه الضحك على أمره، فضحك ضحكته المعتادة، ونسي
المدينة خلفه تمارس الزنى مع الليل، فهربت الحديقة من بين يديه
بقميص النوم... <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ضرب رأسه بالحائط مرتين، نظر الى الحفرة التي امتلات
بالماء الاسن بصق في وجهه، تذكر البحر حينها، فانطوى على
نفسه خجلا، وألقى نفسه ضفدعا، فضحك كثيرا، لأنه كان يحلم
بمستنقعه العنون، مد لسانه والتقط حشرة ما راح يتابع القفز
ممتنا.

عادت الحديقة عندما نهضت الأزقة الضيقة من نومها،
وأدركت أن ليلها كان حلما مزعجا.

x x x

المغامرة (٢)

كان محمود المشروق يتقلب فوق السرير بجسده الفخم

عندما امتدت اليه يد زوجه تلمسه بحنان، ليذهب الى العمل،
أطلق في وجهها كفرية اهتز لها كرسي العرش تراجعت يلفها
الذهول بعد كلمات الطلاق التي سقطت عليها كحجر ضخم.

تعالى صوت شخيرته، وارتفع صوت بكائها وهي تنظر اليه.

× × ×

ضغط على المكابح بشدة، تنبه كل المارة الى زعيق العجلات،
قفزت الى الرصيف، انفجر ضاحكا، وهو يشير اليها،
اقتربت، صعدت الى السيارة، مازال الصمت يسيطر عليها، أمسك
يدها، لا تعرف كيف سمحت له، كانت واثقة من نفسها، وكان
برميلا فارغا، كانت مبهورة بسيارته، بساعته، بالسلسال الذهب
في صدره.

ضغط على يدها، رمته بنظرة ماء ابتسم لها، اكتفى هذه المرة
بأن قبلها، عندما قدم لها السلسال.

غادرت السيارة وهي تعدّه لقاء آخر.
أشعل سيكارة، وانطلق بسرعة جهنمية في الشارع العريض.

× × ×

- على هامش المغامرات -

(1) هز الكلب أبو راسين ذيله وتأهب للقفز، فريسته هذه
المررة سهلة جدا.

كشر تكشيرة كبيرة وقفز، فاصطدم بجذع الشجرة التي
أمامه، أحس بألم شديد، فصاح «و و و» وسقط.

(2) قالت لنفسها في المرأة «أنا جميلة جدا».

(3) عندما اقتربت الصحراء من الأشجار، اهتزت وأيقنت أن
الجفاف قادم لا محالة.

4) قال الذين شاهدوه : «كان كلبا ضخما. له تكشيرة خاصة
تميزه، وأغنية يرددها على مسامع الجميع «عو عو .. عو عو عو
...عو وو»

x x x

- المغامرة الأخيرة -

في الصباح الباكر وجد محمود المشروق جثة هامة خلف
مقود سيارته ورائحة الخمرة منتشرة بشدة في المكان.

مر الجميع دون أن يشير اهتمامهم.

وحدها جلست فوق سريرها صامتة أمام حطام المرأة
الكبيرة.

عامر الديك



انصب

الليل وانهاًل مثلاً وثوى
بالمكان ظلام متلبس مقيم،
تحفحف أرياحه وتقعقع

أجراسه.

كنّا حُباشة قوم نُؤلف الخيال
ونسرّح البال لينساب الحال، وسيلتنا
خمرة كالقصيد وصبرنا صلد كالحديد...
ومازلنا إلى تزاويق الفجر نسعى ثنيا بعد
ثني، نكرع في الكؤوس ونروح عن

النابه والصميم

النّفوس لما انصفق باب حُمنّا وخلعت علينا الظلمة الفرع ساقية جارية حتّى
كادت تتقرّح جلودنا، وإذا أبين غلامه الصميم يلعن ويسبّ، يسرع ويخبّ، قاذفاً
بالسّلام فاحشاً في الكلام، يثنّى في حراكه وينكسر، يجيش روحه للقيء أو
يصرص

والصميم بن غلامه هذا هو حنّ خليلع، ماجن صعلوك، دساس نمام، دسم
رخو، ولوع بالفلقتين، يمضي دون حرج في المعاصي، نتحاشى لقاءه ويروقنا
فراقه قال :

«كنت المرمرة في الحي أقتعد، أتلو أنعاماً كالقروح أحنّ حننا ألتذ
كالمرجوح، أرنو إلى طشيش الشتاء وما تنأثر من غنج النساء والاقح بالبصر
عرضهنّ وأشتهي غضاضتهنّ لما مرّ منسكباً تلقائي أبين العابلة النابه يسوق
حسانا يقودهنّ غلام، بيضاء، ناصعات وهو يفرك جأبة بطنه يترنّج ويترنّم.

جعلت أقحم البصر فيهنّ طلق المحيا أرجو مع النابه مناصفة أو يطيح
طوحاً فأختلي بهنّ وبالعَلام ...

وأبن العابلة هذا صلب غضنفر، جارح هائج، جلمد شديد عنيد» أعرّ

يواثب غريمه ونديمه، غرّار، ضخم الحجم دميم.

مرّ ومررن ومرّ الغلام بسلام وإذا وجلان بعد فينة يستقيمان ثمّ ينثنيان ويحملاني من الإبطين صامتين هادئتين، يلكرانني ويفمزانني، يدعكانني ويفركانني حتّى اغرورقت العين بالدمع ولفح الوجه بالسّفع والصّفغ. وإذا بن الحابلة، يلقيان بي كالسّقط مغموما مهموما خائفا خاشعا أقول أن سبحان عفوك يا النّاب يا أبن الغاضلة - وكنت أعلم يقينا أنها فاجرة فجورا -.

بصر بي مستصغرا محتقرا وإنغمس يضرب كفّا على كفّ كمن يتوثّب لنهش الجسد وقال :

- «ليُزْعَمَ منك الدّهْن حتّى يخلُ فيك الدّهْن ثمّ تقطع أغصانك ليكثر زوأك لقاء فعلك الأفحش. ألا تستحي ؟» ثمّ أمر فجلدت كذا جلدة حتّى تذوّقت الأمر وقفزت أنطّ كالملسوع لا ألوي على شيء ...

وفي ما أنا عدت إلى ممررة المي أقفّعه، أرمم بالزيبب الجروح وأحفن القيع من القروح، أسبّ طشيش الشتاء وألعن عرض النساء والنّابيه أبن الحابلة وأمّه وميلاده والقابلة عاودني الرجلان وحملاني وإذا أنا وجهها لوجه مع النّابيه يتوسطنا كالزّير رجل تعفّر شحمه واكتنّز، ضخم أصدر أرقب يرتدي العسجد والحريز يفتقد ريش الثّعام محدوبا كالسّنام. قال :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- «أقحمت البصر في النّساء ؟»

- قلت :

- «جلدني يا مولاي كذا جلدة حتّى تفرّج جلدي وتجرّح».

- قال :

- «ينالكما عقاب وللبيدئ حظّ اللاحقين».

- قلت :

- «أعزّ الله مولاي، لو أمرت بالمراهم أطلّى بها جروحي ثمّ أخرج من الجسد روحي».

- قال :

«ينالكما العقاب أولاً».

- قال النّابه أبن العابلة لوّث الله أنفاسه وقبّح لون أضراسه :

«أقض يا سيّدي بما أنت قاض».

ثمّ طأطأ فينة واقترّب رويدا وقال :

«وكم العقاب ؟»

- قال الرجل :

«جلدة باثنتين، ومائة بمائتين وألف بألفين وهكذا»

- قال أبن العابلة :

«أقض يا مولاي بآخر ما نطقت فأنا راض».



وفي ما أنا شاخص مشدوه صامت كتمثال شمع قرع صرخ أمي طيلة
الآذن فقمّت من نومي مفزوعاً كالملدوغ، أهر هريراً أو أكر كديراً أقول :

- «سبحان الشّحاذة والهوى، حاكي الأمر الشّيء والكلّ إستوى».

* * * *

أصابنا نحن حياشة القوم على الصميم تحنان وسقيناه سقيا بعد سقي
حتّى أشعل الشراب وإرتوى ونمنا سباتاً ونام الصميم ...*

محمد الجلاصي

المكنين أكتوبر 1993

(*) ينظر تصدير العدد 97 (جويلية - سبتمبر) 1992

حسين المناصرة

هذه

الورقة للمراجعة ... فأنا أريد
الوثيقة المحجوزة لديكم
أريد أن أسافر

الوثيقة

أنا أسافر ... أنا أتخلص من قيود
جحيمية ... أتخلص من الشيران المفعمة في
جوانحي كلها ... إنهم يحرقون الوثيقة ...
لهذه الوجوه لا تبسم قط ... إنها مكفهرة
ومزججة ... إذن فهم سيقتلون الوثيقة
الأسنة في مخازنهم ... لا علي ... فالوثائق

كثيرة ... تزيد ولا تنقص ... إنها مضمّنت له وفي لحظة المبح ذاتها قبض عليها ...
الناس يدخلون ويخرجون ... القاعات مزدهمة ... الوجوه مغبرة ... الابتسامات
في وجوه الزوار نابذة ... الوجوه حزينة ... السجائر تعلن عصيان اللافئة
المهشمة ... «رجاء ممنوع التدخين» ... الأزمة تحيط بكل الوجوه ... العيون زائغة
تلتفت في كل الأنحاء ببلاهة ... الأحاديث الجانبية تكاد تكون نادرة ... إنهم
يشيحون بوجوههم نحو المدخل الضيق ... ينتظرون الأصوات التي تناديهم ...
يتسمعون ... ينصتون ... يترقبون ...

الوثيقة ... السفر ... المقابلة ... الحجز ... الشوارع ... الحرائق ... والزمن
يتنقل ببطء شديد ...

أريد السفر ... أريد التخلص ... لعنة الله على القيد ... القيود ... القيود
... الوقت يخنقه الانتظار الجحيمي ... الوجوه محروقة ... الوجوه الأخرى لا
تبسم أبداً للوجوه الحزينة ... الشفاء تيبست ... القاعة مزدهمة ... الداخلون
أكثر من الخارجين ... الترقب ... نريد الحياة ... لا نريد الحياة الأسنة !!! ... نريد
الخلاص ... الأنوف مزكومة ... الطلوق تحرق ... الأرجل تتحول إلى براميل
الزفت ... والشعر يتناثر من كثرة الشد ... والجسد يتلوى فوق الكرسي

الحديدي ... القلوب تخفق بالقيود ... نريد الرحيل نريد الخبز ... وقبل كل شيء
نريد الوثيقة ...

* * *

عليّ أن أصغي جيدا للأسماء ... متى ينادون ... الوقت تأخر ... إنهم لا
يريدون المناذرة ... ربما يحتاجون إلى أبواق لتراتح حناجرهم ... الناس
يزدحمون ... إنهم من فصيلة واحدة ... وأولئك لن يتمكنوا من لف القيود
بإحكام حول أعناق هذه الأعداد المتزاحمة حتى الثمالة ... الساعات طويلة جدا ...
مرت بصعوبة ... الدوام ينتهي بعد قليل ... الوساطة ... الغشل ... الوساطة ...
الوساطة ... إنهم يتأخرون ... ربما ... في كل تأخيرة خيرة ... الفرج ... منذ
الصباح الباكر ... الدوام سينتهي بعد نصف ساعة ... الوجوه تقل في القاعة
المزدحمة بالسجائر ... اللعنة ... إنهم سيطردون من تبقى ... أأخذ ورقة أخرى
... عليك أن تراجع ...

الوجوه تزدهم في كل مرة ... القاعة نفسها ... الانتظار نفسه ... الصوت
والحركة من وإلى داخل القاعة ... الدخول والخروج ... القاعة تعيش حالة مثالية
لعنفوان الحركة ... القاعة تعيش حالة مثالية لعنفوان الجعود والصمت ... عليك
أن تراجع في يوم كذا ... عليك أن تراجع في شهر كذا ... عليك أن تراجع في
سنة كذا ... عليك أن تعيش بلا وثيقة ... أغرب عن وجهي، فأنت لا تستحق أن
تحمل الوثيقة ... أنت لا تستحق الخبز الذي تأكله ...

الوجوه المزدحمة والقاعات الواسعة والوثيقة المهرتنة ... الابتسامات
النادرة ... الفرج المقيد ... الداخلون والخارجون ... القيود ... اللعبة ... العالم
المتخلف ... الدول النامية ... الصراع الحضاري ... الوثيقة المطاردة ... الوثيقة
المقبوض عليها ... القاعات الممتلئة ... الشياطين الزرق ... الوجوه المتشابهة ...
الأوراق المزدحمة ... الحاسوب العصري ...

هذه الورقة للمراجعة ... فأنا عندي مقابلة ... أريد الوثيقة ... أريد أن
أسافر ... الآخرون لا يبالون بك ... الأرزاق والأعناق ... الضحكة الغبية ... شر
البلية ما يضحك ... وفجأة تتوقف ... أنت آلة لا تضحك من القلب ... بل من
المعاملة ... الغرفة المزخرفة ... المقاعد الوثيرة ...

* * *

يرشف القهوة ... يجلس باسترخاء ... ينظر إليك بلا مبالاة ...

وماذا تريد ؟

- الوثيقة ... أريد أن أسافر من أجل العمل ...

- نحن نحبك، ولا نريدك أن تسافر

(تتجرع المُم)

- لن تأخذ الوثيقة !!

(تتلبّد أمعائك بالتقيء)

- عليك أن تدرك أن العصيان يضرّ بصاحبه أنا أجلس على مكتبي،
وأخذ راتبي سواء أعملت أم لم أعمل ... فأنت وحدك تخسر ...

(البصاق في فمك يتحول إلى طعم الحفظ)

- العقاب بسيط سنمنعك من السفر ... وإذا أردت أن تسافر فسافر ؛
ولكن بدون الوثيقة ...

(تشعر بالدوار ... تتجرع القيء بمرارة كبيرة ...)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- الوثيقة في الحفظ والصون !!

(تعزم على البصاق فتتجرعه)

- هل تعرف الباب أم أدلك عليه ؟ !!

تخرج بلا ورقة ... تقدّم طلباً ... تدعّمه بالوساطة ... الوجوه المزدهمة ...
الداخلون والخارجون ... العالم المنبوذ يتحرك في قاعات الشقاء ... العرق
والسجائر ... الوثيقة ... العيش بلا قيود ... الأمنية لن تتحقق ... الجحيم
والإصرار ... القيود والملاحم البشرية ... الوثيقة ... !!

حسين المناصرة

صفية البخخري

أنا

والليل المهاجر معي، كنا
نمشي عبر أنسجة الأزمنة
نخترق حواجز الماضي
والحاضر مروراً بالمستقبل. كنا
كذلك نحسبنا امتلاكنا الهوامش
وتخطيناها الى ضفاف التلقائية
حتي رأينا طيفاً يتابعنا ويجوب
معنا الأزمنة ويخترق الحدود.

اعتراؤه

وقف أمامي ورفع يده الى

الليل فحمله على الوقوف ثم قال لي :

- «ها أنت وصلت !» -

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لم أجد ما يفريني به ولا ما يدعوني الى الاعراض عن الليل،
فاشحت عنه واقبلت على الليل أستدر منه ما أنا في حاجة اليه،
وأستلهم منه ضياء أتوق اليه وأشتاق، وانا لا طاقة لي بالابتعاد
عن الليل... ولكنني اندهشت حين لم أجد الليل ولا الضياء ولا
السكينة ولا القرار بل وجدته في زمن لا أعرفه ولا عهد لي به،

التفت وأنا أحس أن نفساً حاراً يلحس شفتي العليا وأن
وجنتي تحمران فهما الشفق الصيفي يعتصر الحزين فيتبخّر
ليساعد فتعترضه خطوط نقشها الغضب عميقة على صفحة
جبيني لتحبس أنفاسي فانسلت من بين أسناني كلمات كما
السكران يهم بالكلام فيجد في اللسان «وقراً» اذ تلتحم أضراس
بأضراس فيفدو الكلام صريراً :

- «ماذا صنعت بعزّة الليل وسنائه ؟ بل ما عساك أن تصنع

به ؟».

قال مبتسما :

- « ألا تسأليني من أكون ؟ »

قلت في صوت قاحل كأنه عام جدب :

- « وماذا تراني أفعل بشخصك ؟ ».

قال والابتسام لا يفارقه :

- « أنا ... من حبس الليل ليراك »

أحسست وقتها الكون علةً تحاصرني، وارتخت كتفائي ونزّ
عرق بارد من كفّي والتحم شوبي بجسدي فهو كالجلد مني. فقلت
بغضب أنفض به وهنا عن رغبة في الصمود تعاد تنهار :

- « لا أريد أن أعرفك، ولا أتخيلك صادقاً فيما ادعيت
لنفسك، بل أكاد أجزم أنني لا أبالي بك ».

قال :

- « رويدك ... مهلاً ... لا تكوني متسرفة. وأرجو ألا تتخذي
في قرارا ستغيرينه فيما بعد ! »

قاطعته بضجر :

- « سيدي ... لا أغير قرارا كانت تصرفاتك البغيضة أغرتني
به ».

طأطأ رأسه حاسرا عن جبهته الفضية وقال :

- « أعترف أنني أخطأت حين اعترضتك مع ليك، ولكن : ألم
تكوني تتصرفين مثلي لو كنت مكاني ؟ »

قلت وأنا أعرض عنه وكأنني أريد الانصراف :

- « وما الذي يجعلك واثقا من نفسك حتى لكأنك الجبال

ثباتاً ؟»

قال وقد ضرب بقبضته اليمنى كفَّ اليسرى محدثاً ارتطاماً خفيفاً كالحجر يلقي به صبيّ على صفحة بركة ماء فتتوالد الدوائر هائلة كالنبض :

- «مهليني حتّى أعرفك بهذا الذي حملني على اعتراضك».

قاطعته :

- «ماذا تريد ؟... مهلا ... أما رايتك من قبل... نعم أذكر أنني أعرفك ... عجباً : كأننا الأشباح تترصدني في كل اتجاه وتحسب عليّ خطواتي... نعم، رايتك قبل الآن، ولكن أين ؟... رأيتك !...»

قال بفخر وقد أشرق محياه :

- «نعم. رأيتني في مكاني وزماني هذين. لا تعجبي : إنّ المصادفات نخلقها متى شئنا... أما الذكرى فزاد للغو الخيال ! صدقيني، أنني ارتويت من الخيال حتى الشمالة، وشبعت حتّى حشاشتي - انظريني حتّى أكشف لك عن ذاتي، إنني والزمن حكاية صاغتها الاقدار ونسجتها أخيلة الغمامة لترويتها للأجيال الغيبة. وإنها لذليلة هي رؤاها وأحلامها وأمثالها. ولا تحسبي أنّ المراجع تعطى لتأخذ... نحن وحدنا نأخذ ونعطي دون إدراك لذات العطاء. انظريني حتّى أكشف لك عن ذاتي، إنني والعطاء عمران كلانا يهب أنفاسه ويزفّها وليمة على مائدة الرب دون رجاء لجزاء. انظريني حتّى أكشف لك عن ذاتي، إنني والعطاء واحد : كلانا يغني ليسدل ندى عمره شوقاً لا يحبسه بل يدحوه للكل. إنني المحبة بأبعادها جميعها مشخّص أمام من وهبني وقتاً وفكراً وروحاً. إنني المحبة شبح إن تجسدت ملّني الناس... لذلك أظل خيالا يطوف مع أطيفاف الأزمنة الغابرة وأرواحها... إنني أنعكس على المحبة أو لعلها تنعكس عليّ وإنني لأراها غريبة بكثرتها سعيدة بهما، لذلك أظل طيفاً يجول مع أنفاس الغمام إذ رأيت فيه... هناك... الحياة وكل صيرورة... هي الترحال الجميل الزاحف على

البعيد من منعرجات الغيب بلا خشية ولا سكر...».

هممت أن أبوح له بما اعترائني من سحر وأنا أستمع إليه،
كدت الشمس منه ألا يتوقف عن هذا العزف الذي سما بقلبي إلى
أذني... كآني بنجوم الليل استحال شمساً فإذا الطين ينبجس
عن الأزهار، وإذا الصخور تتشقق عن روعة الكون وقد عمه فيض
من حنان : حنان العقد يهفو للجيد، حنان وردة الفجر تدعو
الندى، لقد هممت بقول لم أقله. غير أن عجزني ذاك لا يمنع قلبي
أن يخفق ولا أنفاسي أن تتردد كالطبيعة تجري الزلال على
الصخور!

إني الآن معه... ولا ليل... لقد خلّفتني الليل وحيدة مع فكري
ومع هذا الغريب، خلّفتني بعد أن علّمني أنه من العار أن أضاجع
في الليل ما أجبن عن الإفصاح عنه في النهار... وقتها بدا لي أن
حمية تفرض على العقل إهانة للذات، وكأنني بدأت أبصر...

إني أراه، وهي خطوة تفصلني عنه، وإنّ لساني على وشك
أن يقول : «إني أراك!» فتلججه حمية تمنع الملح.

أراك أدباً خارقاً لا يزال يخطو أولى خطواته، التزامنا بك
ولّي وأصبح متاهة عربية تتخبط فيها كأنما الزمن توقف بنا أو
كأنما القدر قرّر احتباسنا وسط قمقمه السليمانى.

أراك أدباً خارقاً أذ تنصلت لي وأبنت أنك اكتشاف جديد...
فليتني أكون احتواء لأصير انتماء وليتني كنت شوقاً لأصير بعداً
كأبعادي الراسية أمام ترهات ذاتي - أه... ما أبدع الكلام حين
يكون صراعاً ويصير محراثاً يقلّب أرضاً بوراً ويهيئها للخصب
والانجاب!...

إنّني يا طيفي الجميل أرتقبك من خلال مذاهب نفسي
لانتقيك مصفى من خدشات الهامشية والملل.

إنّني يا طيفي الجميل أنتدبك على هامش مرايا ذاتي لأصلبك
صرفاً على أجنحة الخلاء وأخيلة المروج فلا حشرجات العالم ولا
تذبذبات البشر أو مسكنات الجبابرة!

أراك شمعا محرقة تلهبني فتنا وارتجافا فكأنَّ العالم
أجبتاك لي إذ رآك فتنة تحلي تاجا في علياء لا يطالها المجد ولا
الكبرياء.

إنَّني العبرات الحيرى تركبها الخواطر إذ تطل من رحم
الغيب هي الالفاظ تزدهم عليَّ فاكتظ بها ولا أجد الى وضعها
سبيلا. فانا لا أجدك ضمن قواميس الفكر الذي فاتته مجدك وأنا لا
اعثر عليك وسط لغافات الاصداف الشاطئية.

أراك إذ أراك فنأ عريقا يجول داخل حنايا القلب ليمدها
جداول ومروجا تسقى الظامى والريان.

إنني والمتاهة روحان، لقد اجتنبت الحنين وقدمته قربانا
أمام بلاطك، فأشواقى تناجيك والامي والبعاد. الليل يناجيك
والنهار وملتقيات الأزمان.

أراك إذ أراك جدولا يفيض عطاء يا حنيننا كنت أبدا أتصيدك
في منامي حين تعصرني الاشواق داخل زناينة الأحلام وتسلمني
طوعا الى مناجاتك!

يا أملا كنت ولا تزال تخربش على أوتار عقلي لأن الذكرى
ألهمتني حين ارتصف المنطق بالحلم وخوضاني حلبة الصراع
وأسلماني طوعا الى مناجاتك!

يا فرحا كنت دائما أشتهيك ضمن خطوط أيامي حين
لوحنتني السنون الى بحر بلا شيطان ولا مراسي وطوحت بي
المحيط بلا رقص ولا ألقاب ولا عنوان واسلمتني طوعا الى
مناجاتك!

يا ملاكا كنت وما أزال أجدك في يقظتي تتحسس مواطن
ضعفي وتمدني بالايمن القوي حين يكون الحنين يسلمني كرها الى
مناجاتك!

هكذا كانت بدايتي معك ولا تزال صراعا وعراكا ومحاربة،
وحين تكون البداية معك عطشا عند النبع الرقراق تنتحر الخيبة

ويولد الالتزام حتف الحمية وحتف من يغال الشذى في براعم
الورود.

تلك بدايتي معك، بداية انفجار يريد انبعاثا جديدا.

انفجار كان تخميرا ترسب على مدى مواقيت احتبستها
داخل حمم تتصوّر في تذرّ وهي تسري نحو فوهة بركان ينذر
بالانفجار.

بدايتي حكاية وحمايتي بدايتها كأجمل ظفيرة تتدلّى على
كتف جدائل البحر حين تهم الشمس بغسلها على ضفاف اليم
الغريق في أحلام الوصال !

بدايتي كأروع معزوفة امتشقت نبرات فنّها من حنايا
الاطلال في عزف فيروزي ساحر كأنما يد خفية نسجت ذلك اللحن
السمائي !

بدايتي أريدها انبعاثا يخرجنني من هوامش الدفاتر ومن
قوانين الكبار ومنطق الأسلوب !

حين أبعث من جديد أكون روحا بل عمرا فريدا يهتف بك
وحدك ويلتزم حدود حدودك إذ المحبة شرط لمدينتنا الغاضلة بل
هي التزام لمولد جيل آخر.

كذا نكون وكذا نذوب وسط الزحام : زحام الفجعية.. ولكن
... الى متى أضلّ أقلدك الالقب وأناجيك الليل إنما أريدك سحرا
يتنفّس وقتما أشاء ويحسر لي عن نفس ضاق بها صبرها وصقلها
الانين وأضناها الألم.

إنما أتخيلك ذاتا المعية تتمنطق بفكري وتتضخم بقياس ألمي
لتفرّزني أخيرا عوسجا !

إنّني أتصوّرُك يا هذا لحنّا ملائكيا تعزفه الربابة على أوتار
السما فيحفر في جرحا جديدا ليلهمني صرخة أخرى في باب
الجماد !

لا ! لا !... إنني أرفض ! إنني لا أعترف بلحظة ضعف
تعتريني لأنني لا أريد أن أكون قضية جديدة تفجعني أرفض أن
أصير قضية ! هذا رفضي وهذا عنواني وهذا اعترافي !

أراك إذ أراك زمنا ينظر اليّ من خلال أنسجة المتاهة
ليقعدي على تخضبات الالحان فيعصرني والمتاهة على ذكرى
الموت.

أنا والموت سواء. كلانا يندب جرحا كليما توجّه الانتظار
وصبغه بمنارات الصدف والاصداق.

أنا والسيل سواء. كلانا يحفر مجدا بأظافر بالية هدّاه
التصعّب والتشتّت وفاجأها بالعدم !

أنا والعدم سواء كلانا يسجّل على ورق مائي اعترافا
خطوطه الوجع ويراعه الخنجر وحروف الضياع أفلا تراني غريبة
الاطوار وقد لقيتني وكلفت نفسك اعتراضي ؟

أعترف لك إنني بحثت عنك في قصور الوهم وأكواخ
السراب !... فتشتت عنك في جوازات السفر والخصابات البريدية
وانتظرتك في قاعات الهواجس ومرايح مواقيتها الخسران
ومراسيها الافلاس وقرارها الضياع،

وحين اكتشفت أنّك مسافر على قطار زمني متقلّب المواعيد،
وحين أخبروني أنّك مهاجر في سجلات اللامكان ندبت حظي
وكتمت ظني ونسيت أنني ضائعة في سجلاتهم وأنني مهاجرة في
مكاتيبهم وعلى يخت لا يصمد أمام الامواج !... ساعتها عرفت أنني
خسرت الزمن ولم أربح سوى ضعفي ولم يزدني ذلك الا يقينا
أنني والسباحة في الفلك ضياع وأنني والتجوال في عصور
الارباب جنون وأنني لست بعد في مستوى روحك... وأنك طيف
ضائع معي !..

قل لي الآن : « ألم تفجعك خيبة كالتي لقيت ؟ أما نابتك
صراعات كالتي واجهت ؟ ».

صفية البختري

الحنين

للأرض يشدك.. يظلّ في
أعماق ذاتك كينبوع أبدا
لا ينضب.. عاشق أنت
لرائحة ترابها برغم انخراطك في
حركة المدينة.. أو المدنية.. هذا
الأخطبوط الذي زعموه الحضارة..
يمتدّ لكلّ الأشياء من حولك...

عاصفة الصحراء

شوارع المدينة فسيحة...
والنساء يتجلّين أجمل.. مساحيق
وعطور.. قدود هيفاء تتعایل.. والمقاهي تكتظّ بروادها.. ويستمرّ
الضجيج مزعجا.. دخان المصانع يعلو.. فيكاد يخلق الانفاس..
وأنت كالثالث عند كلّ رصيف.. كالغريب بين دروبها المتشعبة..
يبتلعك الزحام.. ويمر من الزمان ما هو كليل بالنسيان.. وتظلّ
كما أنت تحمل بين جوارحك شعورا لا يوصف.. يباغتك بين الحين
والآخر.. إنّك ابن الريف وبساطته رغم هذه المدينة وحضارتها
الملعونة تنتمي لتلك الجبال الشامخة هناك بعيدا بعيدا من وراء
الأفق.. لا تغريك الطرق المعبدة المزيفة بأضواء المرور اللامعة..
أنت ابن الطبيعة التي لا تعرف ألوان الزيف... والزيف هاهنا
كالمساحيق على وجوه النساء... تنداح بك صور الذكريات التي لا
تنمحي.. تمتدّ رحلة الأيام طويلا.. هنالك في الصحراء.. أو في
الهنشير... أو الغابة.. حيث تتراقص الأشجار وتناديك ثمارها.. ها
قد حان القطف !! وسنابل القمح تعانق لهفة المناجل !! ما أروع
موسم الحصاد.. وتبزغ الشمس بنورها المضيء في كل صباح...
فيهب نسيم عليل.. فتتمايل الغصون... وتنتشي النفوس : «لله
ما أحلى الطفولة... عهد كسول الرؤى !...» هكذا تعلّق رغبة دفيئة

للانطلاق بين الهضاب والمروج ... بلا قيود.. بلا ولكن
الطفولة حلم جميل أبدا لا يتكرر.. حلوة أيامها.. ودارت الأيام
دورتها .. فلماذا لا تنعتق من كل كل خاطر تراودك.. تجثم
كالكاپوس... هاهي سواعدك السمر المفتولة تبني وتشيد في غير
وطنك... بعيدا وراء البحار... هناك في «بلاد الرومي»... وكأنما
الغربة قد رسمت بمرارتها لوحة قدرك ... ما بين قطرة عرق
وغصة في القلب... ستروي الأيام أيها المهاجر ملحمتك ... تطرق
الرأس في صراع الهواجس ... فيما تفكر أيها المكدود صباحا
ومساء ... «مسيو جاك» بنظراته القاسية يراقبك.. هذا «الشاف»
المتغطرس بصوته الأجلش يثير مشاعر الاستفزاز .. فلا تناسق
فيما يبغيه وتروض النفس على مزيد الصبر... تمتد سواعدك
ويسيل العرق غزيرا فوق جبينك .. ويبلل رذاذه وجهك الكالـح..
فتى يافعا كنت كالألف الشباب من أنحاء الوطن العربي تحلم
بفرصة عمل في «الخارج» كما يقولون بلفة أهل قريتك الطيبين
... شاققة هي رحلة البحث عن «الخبزة» ... أه ... أه... و «الخبزة
مرة» هكذا يمضي العمر في باريس عاصمة النور.. تمتص الغربة
زهرة شبابك وفي مصانعها تذوب شمعة العمر رويدا رويدا كأنما
هي في مهب الريح... تلعن حظك في هذي الحياة الدنيا.. وكأنما
ولدت لتموت كادحا بأثسا فقيرا تأثها بعيدا غريبا يائسا متعبا
مهاجرا وحيدا.. وحيدا ينتابك اليأس في اليوم ألف مرة..
وتعصف بك موجة عاتية هي مزيج من العنصرية والكراهية...
تضيق ذرعا بحالك... ولست وحدك ... أنت واحد من آلاف العمال
المهاجرين ... أحيانا تحس كأنما أنت رقم في سجلات ذلك المصنع
الفرنسي.. أرقام بلا دلالة .. تماما كأرقام آلاف أنواع السيارات
التي تنتج سنويا... وككل يوم ... تنغمس في طاحونة العمل
المعتاد ... روتين الشغل كعادته يغلق نوافذ الذكرى.. وعندما تعود
لبيتك .. وهل في الغربة بيت ؟... تتمدد جسدا منهكا على
فراشك الحقيق ... وتدفع لجوفك كأسا من الشاي المر .. تتلذذ
بطعمه في غياب الأهل والزوجة والأبناء والأصدقاء ... والصمت
في فضاء بيتك رهيب موحش .. تعبث بدخان سيجارتك في فضاء
الغرفة ... وتنفضه فيرسم دوائر دوائر ... تتسلى بآخـر الانباء في

جريدة فرنسية «الغزو العراقي للكويت» وترمي بالصحيفة جانبا وأنت تضحك... تضحك في سخرية مريرة... تتذكّر ما يقوله الشاف «مسيو جاك» وهو يهزأ بأمثالك «عربي يحتل عربي ...» وجهه يقتحم عزلتك وصمتك .. أينما تلتفت تراه يضحك.. ويهمس «العرب ما يتفاهموش .. أوف Les Appaches ...» وتشعر بالضحكات الساخرة تتعالى .. دوار برأسك .. صداد شديد يعصف بك ..

«وتقرع طبول الحرب في الخليج».

وتقرع بداخلك نواقيس الذكرى...

«عاصفة الصحراء ...».

عنوان بارز في صحيفة أخرى ...

ولا تلقي لها اهتماما ... تتحدّى «مسيو جاك» وأشباه هذا المتغطرس وضحكاتهم .. لانك عاشق للصحراء.. تتحدّى ذلك الضحك العابت براحة البال وهذوء الأعصاب ... لانك الابن الوفي للصحراء البعيدة عن المدينة المكتظة ... ستتحدى المدينة .. ستظل تكدح ... وتشقى www.9gata.com وتكدح 9gata.com وتشقى ... وتشقى ... وتكدح ... وعندما تعود لوطنك تزغرد أمك العجوز وتلفك الصحراء بين أحضانها ... أنت ابنها البعيد ... عاشقها الوحيد .. ستزرعها خيرا وعطاء ...

وتلبّي النداء ...

لأنك أيها الريفي المهاجر تؤمن إيمانا راسخا بأن الصحراء لا تحررها الدبابات والمدافع... عاصفة الصحراء كما تحسها في أعماقك منذ زمن بعيد - في سواعد أبنائها ...

عندما يتغيّر وجه الزمان ...

وتصبح الصحراء جنة خضراء

لن يهاجر الالاف من الشباب ...

ولن ... ولن ... ولن تتلقى الاهانة ومزيد الاهانة من ذلك
القصير « مسيو جاك »... فهل تمزّق جدار الغربة وتعود

.....
..... إلى الصـحراء

بلقاسم برهومي



أمال الركروكي

وأنت

سهى متى ستتزوجين ؟

انتشلني هذا السؤال من
شرودي ليلقي بي إلى شرود آخر. أتزوج !
أنا ؟ ! بعد كل ما كان ! لماذا هذا السؤال
؟ لماذا أجلس إلى هذه المجموعة ؟ أنا لم
أخترهم، تردي الكثير على النادي هو
الذي جعلني أتعرف عليهم وأجلس إليهم
هرويا من الوحدة القاتمة، ولكن كيف
سأهرب من هذا السؤال الآن ؟ صاحبت

سنوات الوهم

تنتظر الإجابة وأنا صامتة لا أدري بما أجيب، لا أدري ما أفعل.

لم أفكر في الزواج طيلة حياتي، الفكرة لم تكن تروقني، الزواج يعني أن
أجلس في البيت طيلة النهار أقوم بشؤونه وانتظر زوجا يعود في المساء،
وأنجب أطفالا أسهر على تربيتهم، وذاتي متى تتحقق وأنا حبيسة الجدران
والعائلة ؟ كل ما كنت أفكر فيه وقتها هو أن أنجح ككاتبة والباقي لا يهم. إلى أن
جاء اليوم الذي رأيته وكلمته، في ذلك اليوم بدأت حياتي.

كان كاتباً شاباً، ذكياً وطموحاً ويحظى ببعض الوسامة، بدأ يشق طريقه
في عالم الأدب منذ سنوات قليلة، كما بدأ يجني بعض النجاحات والشهرة. كان
يجلس ليكتب في نفس النادي الذي كنت ألتقي فيه بأصدقائي. في البداية لم
يكن يلاحظ وجودي ولكن بمرور الوقت بدأت أشعر بأنه يهتم بي، وبأن نظراته
بدأت تلاقني وتربك خطواتي.

كنت يومها جالسة إلى طاولة وبيدي كتاب لم أفتحه بعد. كان النادي
شبه الخالي لم يكن قد وفد أحد بعد، حتى صديقتي سوسن لم تظهر في ذلك
الصباح. بدأت أطالع كتابي على نسمات الصبح النديّة وأشعة الشمس التي

تتمسّل إلى وجداني، وإذا بصوت عميق يأتي من الخلف ويسألني :

« ماذا تطالع الأنسة ؟ »

التفت بارتباك إلى مصدر الصوت فإذا هو، أحمد سامي، الكاتب الذي يجلس في هذا النادي بالساعات ليكتب دون أن يلاحظ وجود أحد. طلب الإذن في الجلوس فأذنت له. ثم أعاد السؤال مرة أخرى :

- لم تجيبي، ماذا تطالعين ؟

أريته الغلاف، فرفع حاجبيه بإعجاب قائلاً :

- « الحرب والسلام ! » قصة رائعة طالعتها منذ سنوات ولكني مازلت أذكرها. القراءات الجيدة تبقى دائماً في البال.

- طبعاً، أجبتي، والارتباك مازال يلazمني.

- عندك مانع أن تناقش القصة مع بعض بعد أن تطالعيها ؟

- لا أبداً لا مانع عندي، ولكن أخشى أن لا يكون نقاشي في مستوى نقاشك.

ابتسم ابتسامة عريضة وأجاب :

- دعي الحكم لي، <http://Archivebeta.Sakhril.com>

إلهي ما أعذب ابتسامته إنها تضيء وجهه كما يضيء القمر وجه الأرض

هل تكتبين ؟

- نعم - أجبتي بتلعثم - ولكن تنقصني الشجاعة الكافية لأنشر ما

كتبت.

- كلنا في البداية لا نجد الشجاعة ولكن علينا أن نحاول، ربّما كان ما

تكتبينه جديراً بالنشر ... هل ستسمعين لي بالاطلاع على ما كتبت ؟

- لا أدك ولكني سأحاول.

- لنحاول معاً.

قالها ولعت عيناه ببريق لا أعرف تفسيره ولكنه بريق أخافني، لا بل طمانني لا أدري هل أخافني أم طمانني ولكنني اضطربت ووددت في تلك اللحظة لو أفر منه. ولكن كيف ؟

- ماذا تنتظرين من الحياة ؟

فاجأني سؤاله، لماذا يسألني هذا السؤال ؟ هل يريد أن يختبرني ؟ كيف سأنتخلص من وابل الأسئلة التي يطرحني بها ؟

- الكثير - أجبته بعد تردد - أن أنجح، أن أحقق ولو القليل من الطموح الذي يسكنني، وأن يكون هناك عدل حقيقي في الحياة وحب وخير وسلام.
- فقط !

وأبتسم ابتسامته الرائعة التي تضيء وجهه كما يضيء القمر وجه الأرض.

- اسمحي لي بأن أقول لك إنك كثيرة الأحلام.
- من مثلاً يحلم ؟ وانت ألا تحلم ؟ قبل أن تبدأ بكتابة قصة جديدة ؟ ألا تحلم بالنجاح الذي ستحققه ؟ بالإضافة التي ستضيفها قصتك للأدب ؟

أصبحت أنا من تسأل وهو عليه أن يجيب. النتيجة التي وصلت إليها.

- طبعاً أحلم، ولكني لا أدع الحلم يسرقني من لحظات تأملي، من واقعي الذي يستحق أن أعيشه، من غدي الذي يقربني من هدفي.
- وماهو هدفك ؟

سألت بسرعة قبل أن يستمر في أسئلته التي تحيرني
- أن تصل كلماتي إلى أصغر مواطن في أصغر قرية في أصغر بلد عربي.... قاطعت قائلة :

- أرايت أنك تحلم ! الحلم نستظل به من واقع لا نحقق فيه شيئاً ونستقبل به غدا يعد بأشياء كثيرة.

- ربّما، ولكن دعينا من هذا الآن، هل تحلمين بالحب ؟
مرة أخرى يفاجئني سؤاله ويزيد في ارتباك وحيرتي. فكّرت قليلاً ثم قلت :

- يظلّ الحب حلم كل إنسان، إنّه فوق الحنان وفوق الصداقة وفوق كل المشاعر النبيلة الأخرى. الحب حياة والحياة حب.

- إلى هذا الحدّ - قال باستغراب - أخاف عليك من هذه الرومانسية، أخاف أن تعمي من أجفانك همسات السماء البعيدة يوم تخسرين حبيباً.

نفذت كلماته هذه إلى الأعماق، ممّا جعلني اضطرب أكثر وأتمنى أن ينتهي هذا الحوار سريعاً. هل حقاً أتمنى أن ينتهي هذا الحوار سريعاً. هل حقاً

أتمنى أن ينتهي هذا الحوار ؟ صمت برهة من الزمن ونظر إلي نظرة طويلة، نظرة تصل إلى وجدان الوجدان. لم ينظر إلي أحد تلك النظرة الثاقبة البريئة وقال :

- تتمتعين بثقافة عالية وتحسنين النقاش، ليتنا نصبح أصدقاء هل يمكن ؟

- نعم. أجبت بسرعة، هذا يشرفني كثيرا.

ونَهَضت واقفة ونهض بدوره وقبل أن أودعه مدّ إلي يده مصافحا وعندما ألتقت يده بيدي احتضنتها برقة بالغة الشيء الذي أربكني وجعلني أسحب يدي بسرعة وأترجع إلى الوراء، قبل أن تصرع خطواتي في اتجاه باب الخروج.

سرت في الطريق مشتتة الفكر، أشعر بألف إحساس في وقت واحد، أشعر بالخوف والحيرة والإعجاب والقلق والحب..... الحب ؟ !! نعم لقد وقعت في الحب ! الحب من أول نظرة، لا بل هو الحب من أول كلمة.

لقد أحببت هذا الرجل، أحببت نظرتَه الثاقبة التي تصل إلى وجدان الوجدان، أحببت كلماته التي تنفذ إلى الأعماق، أحببت ابتسامته الرائعة السخية، أحببت أسئلته التي تحيرني، أحببت كل شيء فيه، كم هو رائع ! وك أنا عاشقة ! وأغمضت عيني وأنا أستعيد كلماته « أخاف أن تحي عن أجفانك همسات السماء البعيدة يوم تخسرين حبيباً وشعرت بالخوف، الخوف من أن أخسره.

ومضت سنوات طويلة على ذلك اليوم، سنوات انقضت كالحلم التقينا خلالها، تناقشنا طويلا، أحببته كثيرا. كان أملا قديما أوقفت وجودي عليه، كلما بعيدا أسعى إلى تحقيقه. وكنت بالنسبة له صديقة، صديقة فقط. كنت أعرف أنه لن يستطيع أن يوقف المطر في عيني وبأنه لن يحتمل كثيرا السير في طريقي، طريقي أوله عذاب وآخره عذاب. أنا جرح يبتسم من شدة الألم، ألفت الحزن ونسيت أن أبكي ونسيت أن أبتسم. أما هو فقد نسي أن يقول لي «أحبك» بل هو لم يحبني. لم يتكبد هذا العناء. وانتظرت كما تنتظر الطيور قدوم الربيع، انتظرت أن يحبني وأن يقول لي.

إلى أن جاء اليوم الذي طلب مني الزواج هكذا وبدون مقدمات. كيف ؟ !

ولماذا ؟ سألت نفسي، أعرفه منذ ثماني سنوات، أحببته مدة ثماني سنوات، لماذا اليوم بالذات يطلب مني هذا الطلب ؟ تراه أحببني ولكن بدون كلمات ؟ لم أعذب نفسي طويلا بمثل هذه الأسئلة. ما يهمني هو أنه خرج عن صمته أخيرا، إنه يريدني، أملي القديم، حلمي البعيد سيتحقق بعد أيام. ساكون إلى جانبه دائما وإلى الأبد.

وتزوجنا، كانت حفلة بسيطة ضمت بعض الأقارب وبعض الأصدقاء المقربين. كانت حفلة هادئة، لم تكن نحب الضجيج وهذا ما أثار غضب العائلة. إنها حفلتنا نحن، زواجنا نحن، أردناها هادئة هدوء لحظات السعادة التي نسرقها من الزمن، أردناها وادعة وداعة شجرة السنديان التي ظللنا ثماني سنوات.

وانتهت حفلة الزواج وسافرنا إلى لبنان. شهر عسل في لبنان يا للرومانسية ! كان هذا اختياري ووافق عليه. أحسست وأنا إلى جانب رجلي في ذلك البلد الغريب الحبيب بسعادة لم أشعر بها من قبل. سعادة تقتلني من جذور مؤسساتي لتحلق بي بعيدا في فضاء مزروع نجوما وأملا.

تراه يشعر بمثل سعادتي كدت أسأله هذا السؤال ذات ليلة وهو يراقصني على أنغام موسيقى حارة ولكنني تراجعته في آخر لحظة. وحين التقت عيوننا أردت أن أقول له كم أحبه وكم انتظرتيه، أردت أن أرتمي على صدره وأبكي كالأطفال، أبكي من شدة حبي ومن شدة سعادتي، هذه السعادة التي انتظرتها ثماني سنوات. ولكنني لم أفعل! كبريائي منعني ...

وسألني ذات ليلة وقد أوشك شهر العمل على نهايته، وكنا نستعد لقضاء آخر السهرات في ذلك البلد الغريب الحبيب :

- ألن تندمي لأنك تزوجتني ؟ أنا رجل وقتي ليس ملكي ولا يمكننا أن نسافر باستمرار

- ومن قال لك إنني أحب السفر - قاطعته بسرعة - سفري الأجمل هو أن أسافر في خيالك وجدانك وأن أجدك دائما في انتظاري في كل مرفأ أصل إليه. سأترك الكتابة والنأدي والأصدقاء وكل شيء وأتفرغ لك. سأعيش من خلالك. هل بعد هذا تسألني عن الندم ؟ الندم كنت سأشعر به لو لم أجدك، لو لم تجمعنأ شجرة السنديان حولها ثماني سنوات.

- أنا أرفض أن تتركني الكتابة لأجلي أو لأجل أي شيء آخر. الكتابة هي حياتك أعرف هذا.

«لا. أنت لا تعرف شيئاً، أنت حياتي ولا حياة بدونك» قلت بيني وبين نفسي. لماذا خنقت هذه العبارة ؟ ؟ لماذا أخنق كل كلمات الحب ولا أسمعها له ؟ إنه الكبرياء أو ربّما أنتظر كلماته لأطلق العنان لشلل من الكلمات العانية والمحبوسة.

انقضى شهر العسل سريعاً وعدنا إلى بلدنا. عاد هو للكتابة وبقيت أنا في البيت. ولأول مرة منذ أن تزوّجت بدأت أشعر بمسؤوليَّتي كزوجة وكربة بيت. «زوجة» هذه الصفة التي كنت أتحاشاها في الماضي، أحببتها عندما أحببت. شكلت جزءاً هاماً من طموحي وآمالي البعيدة. وهذا البيت إنّه لي، أهداني إياه حبيبي. وأنا ماذا أهديته ؟ هو أهداني الحياة بدون أن يشعر. وأنا أهديته حبي الكبير الذي لا يعرف شيئاً عنه. لعله يشعر به، لعله يستمدّ من حبي أنفاسه ليستمرّ في الحياة وفي الكتابة، ولكنّه لا يظهر ذلك.

مضى على زواجنا أكثر من شهرين. وبدأت أحسّ بالملل وبفراغ كبير لم أشعر بهما من قبل. أحمد غارق في الكتابة، لا أراه، لا لأحدث، وأنا غارقة في الوحدة والضجر. حتى أنّي عدت للخروج إلى النادي وللإلقاء لأصدقائي القدامى وخاصة «سوسن» التي لم أرها منذ أن تزوّجت. سالتني ذات يوم وكنا وحدنا :

- سهى هل أنت سعيدة ؟ أجيبني بصراحة.

فاجأني السؤال وسالت نفسي بدوري هل أنا سعيدة ؟ وما معنى السعادة ؟ إنه يأتي في المساء بعد أن أكون قد انتظرت يوماً كاملاً ليلقي عليّ تحيةً فاترة ثم يمضي إلى غرفته ليكتب أو لينام. هل هذه سعادة ؟ !

- الكتابة تأخذه منّي. قلت بعد وقت قصير.

- يعني أنك لست سعيدة ؟

- السعادة وهم كبير، نقضي العمر في البحث عنها وعندما يخيّل البنا أنّنا قد وجدناها نكتشف سريعاً بأننا نطبق على سراپ. السعادة وهم يا صديقتي والوهم سعادة فلا تفرطي في سنوات عمرك وأنت تبحثين عن وهم.

- أنت من تقول هذا ؟ ! هذا لم يكن رأيك من قبل. أنسيت عندما كنت تقولين ساكون سعيدة لو أدخلني من أحبّ عالمه وبقيت هناك و... قاطعتها بمرارة وقلت :

- ولكنه لم يدخلني عالمه، أنا وحيدة ! منذ أن هجرت دنيايا القديمة. لم أشعر بالوحدة وأنا أنتظر ثماني سنوات، أما الآن فالوحدة تخيم على صدري كسحاب بدون مطر، تلاصقني كصديق يفرض نفسه.

أرادت صديقتي أن تقول شيئا ولكني لم أترك لها الفرصة لأنني نهضت بسرعة وأسأذنت في الذهاب بحجة أن لي مشاغل تنتظرنني في البيت.

بدأت بالفرار من الناس - قلت بيني وبين نفسي - بدأت بإخفاء وجهي عن القمر. ولكن العزلة ستؤزّم أموري أكثر ! ما العمل إذن ؟

ومضت الأيام كسيحة، كان قد مرّ على زواجنا خمسة أشهر وبدأ صبري ينفد. إلى متى أحتمل لا مبالاة وتجاهله لي ؟ إنّه لا يشعر بي ! لا أوجد بالنسبة إليه. هذا الذي كان بطل حياتي طيلة ثماني سنوات ولم أكن بطلّة ولو مرة لقصة من قصصه. كنت أتمنى أن يكمل أحدهما الآخر، أن يتوحد عالمان المختلفان ليصبحا عالما واحدا لاثنين. لا أن يعيش كلّ واحد منّا في عالمه الخاص : هو بين كتبه ودفاتره وأنا بين الوحدة والألم. هل هذا ما كنت أحلم به عندما أحببته وعندما تزوّجته ؟ !

وشعرت بالتعاسة ولأول مرة منذ أن تزوّجت، تعاسة لأن حلمي البعيد تحقّق ! ليتنا توقفنا هناك عند أول لقاء. ليتها ما جمعتنا السنديانة الواعدة حولها ثماني سنوات : ثماني سنوات من الحب والوجع والانتظار و... والوهم. لو لم يتحقق حلمي الغالي لعشت على أمل تحقيقه أما وقد تحقّق وشعرت بخيبة العالم ومرارته على أيّ أمل سأعيش الآن ؟ وأجهشت بالبكاء لأول مرة منذ أن تزوّجت. أبكي حلما خاب عند تحقيقه، قلبا تحطّم منذ ثماني سنوات وهو لا يدري، أبكي أملا بعيدا ظلّ بعيدا ظلّ بعيدا حتّى وهو قريب.

خيبة عندما نحلم وخيبة حتّى عندما يتحقّق الحلم ! هكذا هي الحياة !

شعرت في تلك اللحظة بأنّ الخيبة تحاصرني، حاصرتني منذ ثماني سنوات كظلي، كقدر محتوم لا أملك تغييره أو حتّى الهروب منه. أحببته كما لم أحبّ رجلا من قبل. علّمني حبه أن أحبّ الحياة والناس والشجر.

أحببته هكذا سريعا دون أن أسأل، دون أن أنتظر أن يحبني هو أولا. هل أحبني ؟ - أيقظني السؤال- إنه لم يقل لي كلمة حب واحدة منذ أن عرفت، لم يتذكر عيد ميلادي كل تلك السنوات. كم أردت أن أشكره على بطاقة تهنئة لم يرسلها ! وعلى باقة ورد ضلّلت طريقها إلي.

مأساتي أنني أحببته ولم أسأل عن مشاعره تجاهي. لم أحاول أن أعرف إذا ما كان يحبني، إذا ما كان يراني ... حتى عندما طلبني للزواج لم أستسلم لعذاب السؤال.

تجاهله لي لم يعد محتملا ولا يمكن لأي امرأة أخرى أن تحتمله !! لا بد من مواجهته. هذا ما فكرت فيه وأنا أستيقظ صباحا بعد ليلة أرق. ولكن بماذا أواجهه ؟ هل أقول له لماذا لا تهتم بي أنا من اهتممت بك ثماني سنوات ! هل أسأله لماذا لا يحبني كما يحب الوحدة والشعر والكتابة ! هل يسأل هذا السؤال ؟ ولكن لا بد من مواجهته. لا بد أن يجيب عن أسئلتي حتى لو كان هذا سيكون آخر كلام بيننا.

وانقبض قلبي لفكرة الفراق، هذا الذي حاربت الدنيا من أجله وتحديت أقداري للفوز به والآن وببساطة ... أه ! لا ... وأنخولت في البكاء بكائي هذه المرة كان أعنف من المرة السابقة : إنه اليأس ! يريد أن يريحني، يريد أن يخلصني من بقايا وهم علق بي بل أنا التي تشبّثت بها لأنني لا أحب أن أصدق أن كل شيء قد انتهى !!

وأنتظرت عود كل مساء، متعب، لا مبال، ضجر ألقى علي نظرة فاترة وحياني تحية أكثر فتورا. ثم سار باتجاه غرفته كالعادة، ككل ليلة منذ أن انقضى شهر العسل. وقبل أن يصل إلى غرفته استجمعت بقايا شجاعتي واستوقفت قائلة بصوت مرتعش قليلا :

- أحمد ! يجب أن نتحدث. منذ وقت طويل لم نفعل ذلك .

أدار وجهه ناحيتي وقد تفاجأ قليلا من طلبي هذا في مثل ذلك الوقت وقال :

- إذا أردت أن نتحدث ليس الليلة، أنا متعب ورأسي تكاد تنفجر
- متى إذن ؟ رفعت صوتي قليلا، ترجع كل ليلة من مكتبك متعبا، ولا أراك في النهار ولا في أي وقت آخر، هل تظن أنني سأحتمل هذا الأمر طويلا ؟

أَمْ أَنْ هَذَا لَا يَهْمُكَ ؟

بدت الدهشة على وجهه ونظر إليّ نظرتة الثاقبة البرينة التي اشتقت إليها ثم قال :

- ولكن عملي يفرض عليّ هذا الوضع. مهامني في الجريدة، الكتابة، التزاماتي كثيرة وأنت تعلمين هذا. لماذا تتحاملين عليّ ؟

- وأنا ألا تقلق بشأنني ؟ ! ألا أمثل أحد اهتماماتك ولو أبسطها ؟ لماذا تزوّجتني ؟ ! لطالما راودني هذا السؤال طوال هذه الأشهر الأخيرة والليلة أريد أن يجيبني حتى لو كان سيجرحني رده.

شعرت بأنّ سؤالي حاصره وأخرجه، وبدأ كمن يحاول الهروب من السؤال. ولكن إصراري على أن أسمع رده كان واضحا في عيني، وبقيت أنتظر إجابته.

- لا أحد يفهمني غيرك - قال بعد تردد - كنتُ خلال السنوات الماضية أعزّ صديقين وعندما فكّرت في الزواج لم أبحث، بل تزوّجت التي أعرفها وتعرفني، التي كانت لي ذكريات كثيرة معها. تزوّجت الرفيقة والصديقة و...

لم يكمل لم يستطع أن يقول «الحبيبة» لم أكن حبيبته كنت فقط صديقته. وشعرت بأمل عاصف يعتمر قلبي. كنت أشك في حبه لي ولكن ما ألمني أن لا يقول كلمة الحبيبة حتى كذبا. إحساس مرّ أن يقابل الحب بالجهود.

- لم تحبّني ! - قلت بمرارة - لذلك أنت لا تهتمّ بي. لا يكفي أن تكون صديقة لنتزوّجها يا صديقي. يجب أن تسكن الضمير ونقطف لأجلها نجوم السماء.

وابتسم ابتسامته الرائعة التي احتفظت بروعتها رغم قتامة اللحظات وقال :

- قلت لك مرّة أنّ رومانسيّتك الزائدة قد تضرّ بك، إنّها مرض، وأنت لا تريد أن تشفي منه. دائما تهربين من الواقع إلى رومانسيّتك المريضة.

قلت بسخرية :

- أعرف الآن أنّي كنت ضحية الرومانسية طوال هذه السنوات. خدعني

اللَّيْلَ بِسَحْرِهِ وَعَطْرِهِ، تَوَرَّطْتُ عِنْدَمَا رَمَتْ الْقَمَرَ وَنَجُومَ السَّمَاءِ. زَمَنٌ لَا يَسْمَعُ
بِالرُّومَانِسيَّةِ. زَمَنٌ كَالْحِجَابِ، يَهْدِينَا الشَّقَاءَ

أَنْتِ وَأَنَا كُنَّا عَالِمَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ تَجَاهَلْتِ أَنَا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَفَرَضْتُ وَجُودِي
عَلَيْكَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُكَ - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ اعْتَرَفْتُ لَهُ بِهَذَا - كَمَا يُحِبُّ الْعَاشِقُ السَّهْرَ
وَأَنْتِ تَنْتَظِرِينَ كَمَا تَنْتَظِرُ الْأَرْضُ الْعَطَشَى قَدُومَ الْمَطَرِ. أَنْتِ تَنْتَظِرِينَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ،
أَقْتَضَعْتُهَا مِنْ عَمْرِي الْخَاوِي وَقَدَّمْتُهَا لَكَ لِيَمْلَأَهَا وَجُودُكَ الْعَطَرِ. وَأَنْتِ مَاذَا
قَدَّمْتِ لِي؟ بِرُودِكَ؟ تَجَاهَلْتِ لِي؟ صَمْتِكَ؟

قَدْ تَكُونُ فَاجِائَةً اعْتِرَافَاتِي هَذِهِ وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَبْدِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِصَوْتِهِ
الْعَمِيقِ الْعَمِيقِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ أَيَّ نَبْرَةٍ تَأْتُرُ وَقَالَ :

- إِنْ كُنْتُ قَدْ ظَلَمْتُكَ بِدُونِ أَنْ أَشْعُرَ فَأَنَا أَسَفٌ، لَمْ أَقْصِدْ تَجَاهْلَكَ أَنْتِ.
إِنِّي أَتَجَاهَلُ كُلَّ مَنْ حَوْلِي. يَسْكُنُنِي هَاجِسُ الْإِبْدَاعِ لِذَلِكَ لَا أَرَى أَحَدًا. وَلَا أَهْتَمُّ
بِأَحَدٍ حَتَّى نَفْسِي. سَأَحَاوِلُ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ يَقِظَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

- لَا تَعْتَذِرِي ! - قُلْتُ بِسُخْرِيَّةٍ - أَنَا مَنْ يَجِبُ أَنْ تَعْتَذِرَ لِنُتْفَلِكِي السَّافِرَ
عَلَى عَالَمِكَ الْمَغْلُوقِ. أَنْتِ الْكَاتِبَةُ الْمَشْهُورَةُ النَّاجِحَةُ وَأَنَا الْكَاتِبَةُ الْمَغْمُورَةُ الَّتِي لَمْ
تُحَقِّقْ شَيْئًا حَتَّى لَوْ خِيلَ إِلَيْهَا بِأَنَّهَا قَدْ حَقَّقَتْ أَغْلَى أَحْلَامِهَا.

لَا تَعْتَذِرِ لِأَنَّكَ لَمْ تَحِبِّي ! لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ وَقْتُ تَحِبِّينِي وَلَا وَقْتُ لِنُتْرَعَانِي
بِرُغْمِ كُلِّ تِلْكَ السَّنَوَاتِ. الْحُبُّ لَمْ يَمُرْ حَتَّى بِصَفْحَاتِ كِتَابِكَ.

صَمْتُ وَصَمْتُ قَلِيلًا لِأَسْتَرِدَّ أَنْفَاسِي الْمُنْهَكَةَ. وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ مِنْ جَدِيدٍ
قَالَ وَقَدْ بَدَأَ التَّأَثُّرُ وَاضِحًا عَلَى وَجْهِهِ :

- رُبَّمَا نَكُونُ قَدْ ارْتَكَبْنَا خَطَأً حِينَ انْعَدَمَ الْحَوَارِ بَيْنَنَا طَبِيلَةُ هَذِهِ الْأَشْهُرِ،
وَلَكِنْ دَعِينَا نَحَاوِلْ مِنْ جَدِيدٍ وَنَصِلْ مَا انْقَطَعَ. سِتَّةَ أَشْهُرٍ لَيْسَتْ كَافِيَةً لِكِي
نُتَفَاهِمَ.

- وَلَكِنِّي أَعْرِفُكَ مِنْذُ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ ! - قُلْتُ بِغَضَبٍ - هَلْ تَنْظُرُ أَنْ كُلَّ
ذَلِكَ الْوَقْتُ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا ؟ أَنْتِ لَا تَحِبِّينِي وَلَنْ تَجِدِي الْمَحَاوِلَاتِ. كِرَامَتِي لَا تَسْمَحُ
لِي بِأَنْ أَسْتَمِرَّ مَعَ رَجُلٍ لَا يُحِبُّنِي وَلَا يَهْتَمُّ بِي مَا أُرِيدُهُ الْآنَ هُوَ الْخُلَاقُ.

قُلْتُ كَلِمَتِي الْأَخِيرَةَ هَذِهِ بِإِصْرَارِ الْيَأْسِ. وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً اِهْتِمَامًا كَادَتْ
تُبْكِيَنِي لَوْلَا أَنِّي تَمَاسَكْتُ. لَا أُرِيدُ أَنْ أَضْعِفَ أَمَامَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ.

- ماذا ؟ !! - قال باستغراب - بعد ستة أشهر تطلبين الطلاق ! ومن أجل ماذا ! من أجل أوهام تضعين حداً لحياتنا. هل أنت جادة أم أنك تختبرين سعة صدري ؟ أم ماذا ؟ تكلمي ! أعرف أنك لست جادة.
- بل جادة - قلت بسرعة - ارتباطنا كان خطأ. مناخاتنا مختلفة، شطانتنا مختلفة الشمس لا تلتقي أبداً بال القمر.
- ولكن ما هذا الكلام ؟ هل أنت مريضة ؟ عن أي اختلاف تتحدثين ؟
- اختلافنا كان واضحاً منذ البداية، ولكنني تحدّيت الوجود من أجلك ولأن أطلب منك أن نفترق حتّى أبقى أحبك وأحلم بك. أنت من كان سعادتي المؤجّلة.

تكلّمت بصوت رقيق - كنت أريد أن نفترق بدون أن يتحمّط شيء بيننا، بدون أن تكسر المزهريّة التي ضمّت بين أحضانها بنفسجنا.

بدا كغير مصدّق لما أقول ولما يجري، ولكنّه استعاد هدوءه وقال :
- أينتهي كلّ شيء بهذه السرعة ؟ أنتهي حياتنا ولم نبدأها بعد ؟
- حياتنا انتهت عندما تزوّجنا. عندما انشغلت عني بالكتابة وانشغلت أنا بالوحدة والهموم. لم أعد أراك، لم تعد نتكلّم. أين حواراتنا ؟ أين أنت ؟ أين أنا ؟ أصبحنا غريباً ! صعب على النفس أن يصبح الحبيب غريباً.
- إنك تبالغين، كلّ ما في الأمر أنّي انشغلت عنك قليلاً و.....

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قاطعته بسرعة :

- لا أبالغ، لقد ابتعدنا كثيراً عندما حاولنا الاقتراب وتاهت عيوننا في زحام الأيام. لم تعد تلتقيان، أو تلتقيان بدون اكتراث. عيوننا أصبحت غائمة. يؤلمني رؤية الغمام يسكن عينيك.
- تصرّين إذن على طلبك ؟ !
- نعم. قلت بإصرار من يفقد آخر أمل.

استدار في اتجاه غرفته وقبل أن يصل قال بدون أن ينظر إليّ :

- لا تنسي ! أنت من أراد ذلك. قالها بصوت حزين، لا أدري ! هل هو حزين من أجلي أم من أجله أم من أجل صداقتنا الطويلة والجميلة.
بقيت وحدي في الغرفة، انهزت على أقرب كرسيّ، شعرت ببرد شديد، شعرت برغبة في البكاء ولكنني لم أبك. الموقف كان أشدّ من البكاء.

استيقظت في الصَّبَاح وأنا أشعر بالَم في كامل جسدي وبشيء كالعود
اليابس ينغز صدري. لم أُنم طوال اللَّيل، منعني الألم من ذلك، منعني أطيف
الماضي.

فبعد قليل سأنفاده وسأنفاد بيته ! قلت بهلع. انتهى كل شيء بدون أن
أحذر أو أعلم ؟ ! لماذا تكون هذه، نهاية حلم دام ثعاني سنوات ؟ من سيؤنس
طيفه ليالي وأحلامي ؟ من سانتظره ثعاني سنوات وأحبّه ثعاني سنوات ؟ من
سيمنح للورد راحة وللشجر راحة وللمطر راحة وللأيام لون السماء ؟ من
صديقي ؟ من طريقي ؟ من سيكون الرجاء ؟ تعاسني ستكبر أحسن ذلك،
ستكبر حتّى تصبح إعصاراً أو شلاً يأتي على كل الأوراق وكلّ الأسماء وعلى
كلّ الذكريات. الذكريات ؟ ! ذكرياتي التي بدأت معه وانتهت معه. سأعيش بها.
لن يفتكها الألم منّي ولن تعبت بها الرِّيح.

الشتاء بدأ مبكراً هذا العام، لاحظت ذلك وأنا أسير في الطريق. سيكون
طويلاً وموحشاً، سيستمرّ الشتاء وتتحول كلّ فصولي إلى غيوم وشقاء
وستبدأ فصول الأنين. إلا هي ! هل سأحتمل الفراق ؟ ! لم أودعه أكره لحظات
الوداع. ولماذا أودعه ؟ وهل نودع من يسكن الأجنان ؟ !

شعرت في تلك اللحظة بأنّي أترك عمري يوحد دون أن أعيشه، بأنّي
أتخلّى عن حلم ناضلت طويلاً من أجل أن يتحقّق ولكنّه لم يتحقّق كما كنت
أحب. لا شيء في حياتي كما أحب. اضطهدتني الحياة، ماذا لي بثعاني سنوات
من الحب وثعاني سنوات من الوهم ؟ ! هل كان حبيّ وهماً ؟

انتظاري له كان وهماً، أحلامي التي أرويتها من عطش خيالي كانت
وهماً، سنواتي الحاملة كانت وهماً. وهما غذاء وجوده وحرمانني.

وعاد إليّ صدّى كلماته الآتية من بعيد وأنا في هذا الطريق العابس
«أخاف أن تحمي عن أجفانك همسات السماء البعيدة يوم تخسرين حبيباً». لقد
بدأت بعد أحنّ إليه وإلى سنوات الوهم (x).

أمال الركروكي

(x) من القصص الفائزة بجائزة النادي الثقافي (الطاهر حداد).

المختار المومني

ليلة

شتائية .. الريح المجنونة
تعربد .. أسلاك الكهرباء
الممتدة فوق منزلي تصفر
في أمسى ولوعة .. الليل كئيب .. نفسي
المنكسرة تمتلئ توجسا وخوفا .. جسدي
الأسمر يتوجع ممتلئا بالشجن، الظلام
يلف الحي في رداءه الأسود .. الحركة في
الزقاق تخرس بعد تعب .. الأعين الغائرة
تنفر .. الرؤوس المهمومة ترتاح على

حدث من زمن الانتكاس

الصدور الدافئة .. التمسوة ينحن في أحضان الرجال المتعبين .. الخائعين ..
القائعين .. الأسرة تغلئ همهمات وهمسات وشوشات .. الجميع يستسلم
لسحر الليل وأحلامه .. يأخذ الجميع سبات عميق .. الإحساس الحاد بالحرمان،
والخصاصة والانتظار يتلاشى .. البؤس المقيم يفقر .. العالم يتسع .. حدوده
تترامى .. نهايته تضيق .. أرخي رأسي المثقل فوق صدر زوجتي.

- أه .. يا رفيقة دربي .. ماذا أفعل ؟ ! تعبت .. تعبت .. كم أنت طيبة !
تقفين معي صابرة .. كنت تحلمين بفيلة أنيقة، وسيارة جميلة وحياة رائعة ..
أحلامك الكبيرة تحطمت على صخرة الواقع .. حبيبك لم يكن السندباد الذي
يحمل إليك كنز «على بابا» .. صبرت .. أعرف ذلك .. لكن ما ذنبي وكل
الأبواب التي طرقتها ظلت مغلقة .. أنا تعبت ..

- أنا خائفة

قالت ذلك زوجتي والتصقت بي

- ما الذي أخافك ؟

- أنا خائفة ولا أعرف سببا لخوفي.

أجهشت بالبكاء .. أخذت الألفها .. أطيبَ خاطرها .. ارتخت أجفانها ثم نامت كعصفورة مقرورة .. ورأسي على ذراعها، وأصابني تتحسس أساري ووجهها المبتل بالدموع .. داعبني النعاس .. امتطيت صهوة الحلم .. رأيت أمي وقد هدأ «الروماتيزم» .. كانت تجلس على حصيرتها تذكر أروادها .. كنت متعلقا في رقبتها .. أعانقها..

تهت في سراييب الحلم .. سمعت أمي تحدثني

« .. رحيلك يا ولدي تم في زمن قاس .. لم يكن لك فيه خيار سوى الفرار من القرية نحو المدينة.. تلك المدينة أخذت منك أجمل سنوات عمرك، أغرقتك في الهموم .. تقضي نهاراتك المتعبة تعالج الحجارة بمطرقتك فتتحول الحجارة بين يديك إلى قصور جميلة، وعمارات شاهقة .. في الصيف تصلبك الشمس بحرارتها الشديدة .. يعرق جسمك المكدود .. يفوز حبيبات مالهة تكون مع غبار الإسمنت و«الجير» طبقة كثيفة فوق الجلد المحترق لها رائحة ثقيلة .. كامدة لاتطاق .. في الشتاء يقرضك البرد .. تتجمد أطرافك .. تصطك أسنانك .. تظل معلقا على النقالات كيتول صدأ لساعة معطلة .. يدك «تكرنفنا» .. أصابعك تشققت .. »

أخذني الحلم إلى مراتع الطفولة في القرية .. رأيت نفسي طفلا أعفر ثيابي بالتراب .. أصنع لعبا من الطين أو أتعلق في أغصان أشجار الزيتون ..

لكزنتي زوجتي بمرقها .. هرب الحلم الجميل .. عدت إلى واقعي .. إيه .. منذ سنة لم أر أمي .. ما أبشع هذه المدينة ! مدينة الإسمنت المسلح .. مدينة الهواء الملوث التي أنستني أمي .. أه لو أغمض عيني وأقتحمها وأجد نفسي في حضنها .. إنني أراها الآن تجلس في غرفتها وحيدة تذكرني وتدعو لي بالهداية .. أصابعها تداعب حبات السبحة .. أه .. لو كنت في أحضانها وهي ترشني بقبلاتها !! تتشمم رائحتي بعمق وتمرغ وجهها المجهد في صدري الذي نخره دخان التبغ الرديء .. لو كنت في أحضانها لبيكت على صدرها وطلبت صفحها، أعرف أنها ستسامحني .. يالها من امرأة بائسة تلتهمها الوحدة ويفترسها انتظار عودة ابنها الضال !! ويالي من ولد عاق .. يتشرد بين أزقة المدينة ويأكل عمره على لوح الصقالات .. طفرت دموع حارقة .. ابتل فمي بالقطرات المملحة .. أه لو يذوب هذا الجبل الثقيل الجاثم على صدري.

صرّ باب منزلي أنينا مزعجا .. انتبهت .. كانت الريح لا تزال تعوي
كذئب جائع .. وكانت القلط السارفة تتعارك في الزقاق .. كان صدى موائها
يتجاوب مع عواء الريح .. داهمني شوق جارف لزيارة والدتي .. قررت بسرعة
أن أزورها في الغد.. أيقظت زوجتي .. فانتحتها في الأمر .. انشرح صدرها
لرغبتني.

- خذني معك .. أنا أيضا اشتقت إليها وإلى دعواتها الصالحة.

خضنا في تراتيب الرحلة ثم قررنا أن ننهض باكرا حتى نأخذ القطار
الأول. كان رأسي لا يزال على ذراع زوجتي ونحن نتحاور في شأن الرحلة، وإذا
بضربات عنيفة تنهال على الباب المتآكل ..

قذفت بنفس من السرير .. استويت واقفا .. أشعلت الضوء .. اشتد
الضرب على الباب .. صحت بملء حنجرتي .

- أنا قادم

غادرت زوجتي فراشها ..

- ربّي اجعله خيرا .. إنني أتوقع شرا.

أخرج إلى سقيفة المنزل وأنا أصرخ،
<http://Archive>

- من يكون الطارق ؟ من ؟

- افتح .. أنا أخوك أحمد .. أمك ماتت بعد صلاة المغرب. جئت لأخبرك.
انفرز الخبر في طبلتي أذني كخنجر حاد وسقطت في هوة بلا قرار

المختار المومني

صفائس

اخواني اخواتي (x)

تمهيد

أشدّ ما أخشاه هو أن
يصاب الاخوة المعتادون على
الدراسات الاكاديمية بخيبة أمل
حيث لن أقدم اليهم في هذه المداخلة
الا وجهة نظر دون تجميل او
مساحيق اكااديمية أي مراجع الا ما
ندر.

القصة والمستقبل

القص كما عرفه أجدادنا الأولون منذ العصور السابقة أي
منذ عرف كوكبتنا هذا الكائن الذي نطلق عليه الانسان وتطوره
عبر العصور، هذا القص يتوزع بين ذكر الحروب والبطولات وبين
القصص العجائبي الذي تتمازج فيه الأعمال الخارقة للعادة
بالسحر والخرافة. ثم ما لبث الانسان أن تطور أعني تطورت
حياته ونضج عقله وأخذ يرتقي درجات في سلم الحضارة فاستقل
فن التاريخ بالاعبار وقصص الحروب. فنقشت تلك الاخبار اول ما
نقشت على جدران الكهوف. ثم ما لبث حتى نقشت على مسلات
المصريين او جدران المعابد عندما بلغ الانسان من الرقي شأننا لا
بأس به، وقد ظلت القصة بين هذه وتلك تروى مشافهة على لسان
رجال أطلق عليهم العرب رواة الاخبار وأيام العرب.

أما القص للخرافة والاسطورة فقد سلك سبيله متشبها
بوجدان المجموعات البشرية المتفرقة على اختلاف العصور التي
مر بها الانسان واختلاف الهيكلة الجماعية من القبيلة الى الشعب.
على ان هذا القص او السرد او الحكاية ما لبث أن عرف نوعا من

(x) من مداخلات ندوة نادي القصة بمناسبة صدور العدد رقم مائة.

الانشطار أو لنقل : نوعا من التطور. فقد ظل القص الذي قوامه السرد متواجدا بقوة يعايش الانسان منذ فجر التاريخ عفوا بل قبل ذلك بكثير. يعايش الانسان في أصغر خلية اجتماعية وهي الاسرة ثم في القرية والمدينة على لسان الشيوخ والعجائز ثم اشتد عوده وقوي دوره وتلهف الناس على الاستماع اليه والتمتع بتتبع أحداثه وأخبار أبطاله ومغامراته - شأن المسلسلات التلفزية اليوم - لذا اختص برواية هذه القصص جماعة كانت تلك وظيفتهم ومصدر رزقهم. وعندما أتقن الانسان الكتابة دون تلك القصص. فوجدنا ملحمة قلقامش وبعض الاقاصيص المصرية القديمة مكتوبة على ورق البردي. ولم يشذ العرب عن غيرهم من الشعوب، فدوّنوا سيرة عنتره. وأخبار حرب البسوس وحرب داحس والغبراء ثم ألف ليلة وليلة. وما لبثت أن احتلت القصة مكانتها في فن النشر فعرفنا كليلة ودمنة والمقامات ورسالة الغفران وحي بن يقظان الخ...

ولم يصل الباحثون بعد الى تراث قصصي مكتوب بلغة الامازيغ وهم السكان الاصليون لشمال افريقيا...

قلنا : قد عرف هذا القص انشطارا أي انقسم الى شطرين : شطر هو القصة المروية ثم المكتوبة. وشر آخر ظهر مع انتشار المدن والتجمعات السكنية الكبرى وأعني به المسرح. فقد انتحى هذا الفن منحى جديدا في القص فلم يعتمد على السرد والرواية أي الكلمة المروية. بل عمد الى تجسيم الحكى في الفعل والحركة وظهور شخوص القصص والابطال على الركح وجعل قوام القصة ما يدور بين شخصيات المسرحية من حوار.

وقد عرف الصين واليونان المسرح على أن البعض منه لم ينفصل انفصالا عن الرواية إذ جمع بين الحوار والرواية كما هو الشأن في المسرح الصيني.

وتعايش هذان الفنان وكانت الغلبة لاحدهما على الآخر بحسب البيئات. ففي الشرق الأقصى وأروبا كانت الغلبة للمسرح. اما في الشرق الاوسط والمغرب العربي وبلاد الاسلام فقد

كانت الغلبة للقص : ورفض العرب المسرح كشكل فني في أوج حضارتهم ري منذ عرفوا كتاب الشعر لارسطو الذي ترجم الى العربية على يدي أبي بشر بن متى بن يونس القناني من السريانية في القرن الرابع الهجري لما فيه من اشارة الى تعدد الالهة.

ولم يفرض هذا الشكل او الجنس الأدبي وجوده على العالم العربي الا منذ أوائل القرن العشرين ميلادي فقط.

على أن القص خرج بدوره الى دائرة أوسع وهي المدينة على يدي رجال عرفوا برواة الاخبار والقصاصين. وأول ما انتصبوا في المساجد. ثم خرجوا الى الساحات العامة فالتحموا بجمهور أوسع، عرف الاسم الشعبي لهؤلاء في المشرق بالحكواتي - كما عرف بتونس باسم الفداوي. وقد عرفت البعض منهم شخصا واستمعت الى براعة نادرة في القص والتشويق يمتلكها بعضهم وذلك في ساحة الحلفاوين قبالة جامع صاحب الطابع.

ولعل من أوائل من عرف المسرح من أدبائنا المؤرخ ابن أبي الضياف في إحدى رحلاته الى فرنسا مع المشير أحمد باي في أواسط القرن التاسع عشر حيث يقول واصفا لهذا الفن : ومحصل هذا التياترو... وأعماله حكاية بعض وقائع تقدمت ببرزونها من الفكر لحسن المشاهدة ويختارون لذلك البلقاء والخطباء... الخ... وعدد العملة في ذلك أكثر من مائة وهي من الصناعات الشريفة عندهم لان مرجعها الناس وتهذيب أخلاقهم لما يرون تحسين الحسن وتقبيح القبيح معاينة وذلك أوقع في النفس (1).

فهل حدّ المسرح من مسيرة القصة وتطورها شرقا وغربا رغم اعتماده على التجسيم والتشخيص والفرجة ؟ ما أظن شيئا من ذلك حدث أو سيحدث. بل عرفنا مسرحا يخالف ما تعرف عليه من الاعتماد على الحوار وإذا المسرحية تقوم من أولها الى آخرها على الرواية مثل مسرحية التريبيع والتدوير لعز الدين المدني

(1) الرحلة والمشاهدة حصلت بالتحديد في نوفمبر سنة 1846 / الاتعاف ص 102 ج 4.

وإن اعتمدت على حوار الذات أحيانا ومجادلتها وهو شبيه بما يعرف بالحوار الباطني في القصة والرواية.

عرض المشكل :

انما الجديد الذي جعلنا نفكر في القصة مستقبلا هو ما انبثق عن التطور التكنولوجي وهو الصراع بين الكلمة المقروءة المكتوبة والصورة المرئية.

فقد اندس في لا وعي الكاتب أمام هذا التطور التكنولوجي الذي يتجسم في الشريط السينمائي والشريط التلفزيوني تساؤل وتخوف وتشوق الى المستقبل ناتج عن صراع صامت وأحيانا صارخ سافر بين هذا الفن المحدث الذي يقوم على الصورة وبين ما يكتبه القاص أو الروائي من عمل أدبي يقوم على السرد والوصف والحوار.

إذن هناك مواجهة بين الكلمة والصورة ويقف وراء الكلمة الكاتب أو الأديب بمفرده في معركة لأجل المقاء لفنه. ويقف وراء الصورة جمع من الفنانين والفناتين من ممثل ومخرج وكمرمان وو الخ...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فعندما أكتب قصة أو رواية أول ما يتبادر الى ذهني هل يكتب لها أن تظل جامدة بين طيات كتاب الى أن يأتي أحدهم ويطل على محتواه ومجال الابداع فيه أم سيأتي من يتلقفها ثم يحولها الى الشريط الذي يعتمد على الحيل والتقنيات السينمائية الى عالم الصورة فتكتب لها حياة جديدة على يدي مخرج سينمائي أو تلفزي ينتزعها من دائرة الورق والحرف والحبر الجاف الى عالم الصورة المرئية. وهكذا يبت فيها الحياة المارة ويخرجها من عالم الصمت. ولكن رغم هذه التساؤلات والهواجس هل توقف الكاتب عن كتابة القصة والرواية ؟ وهل توقفت المطابع ودور النشر عن المجموعات القصصية والروايات ؟

ما أظن شيئا من ذلك حصل بل ازدهر هذا الفن وتطور. فمن قصص واقعي الى قصص رمزي وقصص نفسي وقصص الخيال

العلمي وقصص الرعب واكتسحت جميع بلاد الله. بل منها ما يكتب في لغة فاذا بلغت من الجودة والابداع مستوى مرموقا ترجمت الى عديد اللغات تتلقفها بدورها الاستوديوهات السينمائية والتلفزية فتحولها الى أفلام ومسلسلات ناجحة تزيد من رواجها معتمدة على ذبوع ذلك الأثر المكتوب.

لا نشك اطلاقا أن السينما كانت منافسا خطيرا على القصة المقروءة. ولكن مهما بلغت من الخطورة فلن تكون على قدر خطورة التلفزة. هذا الجهاز الذي يدخل كل بيت ويغني الكثير عن قراءة القصة والرواية اذ تعوضه عنها بشريط تلفزي مشاهد مع امكانيات الاختبار للنوع الذي يتماشى وذوق المتفرج وسنه فيبحث بين قنواته مستعينا بالهوائي «Parabol» عن ضالته ولا يلبث حتى يعثر عليها فينغمس في المشاهدة ويضرب عن القصة المقروءة صفحا.

على أن التلفزة والسينما قد تحفز البعض منهم الى العودة الى الاثر المكتوب لزيادة المتعة وهل اقول البعض ليبقى العدد الوافر من الروايات والاقاصيص التي تنقلها الاجهزة التلفزية او السينمائية صامتا جاثمة بين طيات كتاب.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فهل يموت هذا الجزء الاكبر أو هل هو مهدد بالموت في عالم النسيان فوق الورق ١٩

أقول اجابة عن هذا السؤال : لا يجب أن يبلغ بنا التشاؤم هذا الحد، وإن كانت بعض الأعمال الأدبية مهددة بالعيش في الظل خصوصا في البلاد التي لم يقيظ الله فيها نقادا نزهاء يتتبعون هذا الانتاج الفكري القصصي ويشيرون الى مواطن الابداع والاستحسان فيه ولغت النظر اليه، فعادة القص هي اللغة بواسطتها يتعرض الكاتب الى الاحداث والقضايا والمشكلات وتصوير الشخصيات في اطار زماني ومكاني محدد أو غائم. ومن هنا وجب على القارئ أن يكون متسلحا بمعرفة القراءة وفهم ما يقرؤه.

بينما التلفزة والسينما قد قلبتا المعادلة اذ لم يعد للغة

الدور الاساسي الذي في الرواية أو القصة المكتوبة إذ أصبحت الصورة هي الاساس مع شيء جزئي هو الحوار. ولم يعد المتذوق لهذا الفن في حاجة الى أن يكون متسلحا بالقراءة والكتابة.

فاذا كان الامر كذلك فهل ستحوّل القصة والرواية الى سيناريو وكتاب القصة والرواية الى كتاب سيناريو وينقلب هذا الفن العتيق الذي عايش الانسان منذ فجر التاريخ الى مجرد تابع وخادم أمين للفن السابع، وهو الشريط السينمائي أو التلفزيوني الذي يعايشنا في كل بيت وأحيانا في كل حجرة بحسب المستوى المادي للأسرة. ولنستمع كيف يستعيز كتاب السيناريو عن كتابة القصة وكيف يحورونها حسب حاجة الفن السابع. يقول أوزويل بلكستون في كتابه «كيف تكتب السيناريو» توجد ثلاثة عوامل رئيسية في بناء القصة : هي التوازن والتوقيت والاقتصاد. فالتوازن هو شكل القصة ككل وهو الذي يبدو بعد الانتهاء من القصة.

والتوقيت هو ادخال عناصر مختلفة في اللحظات المناسبة تماما.

والاقتصاد هو جمع عملية سرد القصة بحيث لا يثير انتباه النظارة لحظة واحدة ولنذكر أن فن الفيلم - أي فيلم حتى أبسطه - هو فن سرد القصة بالصورة فالانسان الذي يحاول سرد نكتة أو يكتب قصة طويلة أو ينتج فيلما دون أن يولي البناء الفني الاهتمام الكافي إنما يظهر احتقارا للجمهور وسيباده الجمهور بالاحتقار كذلك (2).

يبدو لي أن شيئا من تلك المخاوف التي أشرنا اليها لن يهز كيان القصة والرواية فقد عرف القص والرواية منافسا خطيرا تولد عنه فن المسرح من قصة قوامها الحوار ومن فن الفرجة ودور مسرح يؤمها الناس نسوة ورجال وهم في أجمل اثوابهم أي في جو احتفالي ليشاهدوا أمام أعينهم أبطال القصص يتحركون بلحمهم وشحمهم كما يقال يحيط بهم ديكور تلك الاحداث وتلك

(2) كيف نكتب السيناريو ص 8 (اوزويل بلكستون نشر مكتبة مصر).

الحركة.

وإذا الاحداث بعضها يدور أمام أعينهم على الركح وبعضها يدرك من الحوار الذي يدور بين الممثلين. وأصبح للمسرح رواده وعشاقه وأنصاره. ورغم ذلك فقد ظلت القصة تواصل طريقها بخطى ثابتة غير مرتبكة.

لعلّ من أسباب ذلك أن القصة المكتوبة قصيرة كانت أو طويلة مقيدة بصفحات في كتاب أو مجلة أو صحيفة. هذا القيد جعلها تصاحب القارئ في حله وترحاله يقرأها متى شاء في سريره، في القطار في الحافلة، في سيارة الاجرة في حديقة عامة... الخ.

أذ الانسان المعاصر من أبرز ملامحه الاكتئاب والقلق والسعي المرهق لاكتساب الرزق جريا وراء حياة أكثر ترفا أو تأمينا لمستقبل مجهول.

فالانسان المعاصر وسط هذا الزحام من الخوف والاكتئاب والسعي الدؤوب يحاول أن يهرب من نفسه الى عالم الآخرين الذي يصوره كاتب القصة أو الرواية. وإذا تلك القراءة تلتهم الزمن بثقله وتلتهم معه مشاكله فينسى بذلك القراءة هواجسه واكتنابه، فيخفف بذلك الكثير من صراعاته النفسية وملله ولو مؤقتا. أضف الى ذلك أنه يجد حولا لبعض مشاكله إذا كانت القصة تتناول مشاكل قريبة مما يعانيه القارئ. وقد يجد نفسه بين شخوص القصة أو الرواية. وقد تزيل عن نفسه الكثير من أدران الحياة التي علقت بأعماقه. هي لحظات يعيشها في عالم خيالي أو واقعي قد يجد فيها بلسما لجراح الحياة التي تنزف في أغوار النفس.

في تلك اللحظات التي يسرقها القارئ من زمنه الهارب يعيش حياة أخرى بشخصيات متعددة. فهو قارئ مستمتع بتلك القراءة وهو يستخدم خياله ويستحس لتخيل وقائع تلك الحوادث فهو المخرج السينمائي والتلفزي لها، فمن تلك الكلمات الجامدة على الورق ينبثق عالم صوره الكاتب. لكن القارئ يعطيه تجسيدا

ماديا ذهنيا فيشارك الكاتب في عملية التأليف ويعطيها تأويلا وتفسيرا له طابع الخصوصية للقارئ وهو ما يحرمه منه المخرج التلفزيوني او السينمائي، فتتولد في أعماقه متعة ليس لها حد فيتخيل صور الشخصيات والاطار المكاني والزمني والتحليل للحدث ثم يخرج بنتيجة هي من انتاجه الشخصي وإن مهد له طريقها الكاتب. وأحيانا يجعل الكاتب عمدا قصته ذات خاتمة غير واضحة أو محددة وتحتمل أكثر من خاتمة فينتحل القارئ خاتمة يختارها هو. وقد يقف متأملا دوما دون توقف تدفعه دوما حركة آلية.

اقترح حلول :

بناء على ما ذكرنا وجب في نظري اتباع طريقة جديدة في كتابة القصة والرواية فعلى كاتب القصة مثلا أن يترك فجوات مثلما تعرف في الشعر بالوثبات أو القفزات الشعرية وهي تميز الشعر عن العالم التحليلي في النشر دون أن يكون هنالك مساس بالبناء المحكم للقصة أي دون أن يصاب البناء القصصي بتفكيك. وهذا في متناول كاتب القصة القصيرة أو الاقصوى لان كليهما لا تختلف كثيرا عن القصيد فهما نتيجة انفعال أو تأثر بمشهد أو
<http://Archivebeta.Sakhr.it.com> حادثة.

الا أن الاشكال قد يعترض البناء الروائي حيث تقوم الرواية على التحليل ودقة التصوير وتتبع الجزئيات والاحداث لعالم متشعب قد يشمل حياة بطل أو حياة أبطال أو حقبة زمنية من تاريخ شعب.

كما أن هناك طريقة في نظري يمكن لكاتب القصة والرواية أن يسلكها للتغلب على خطورة منافسه الفن السابع والتلفزة.

أولا أن يتشبع الكاتب بقراءة الشعر الحديث خاصة عندما سيكون للشعر انعكاس على القصة طويلة كانت أو قصيرة فيكتنفها عالم من الحلم عالم شاعري أو رمزي يوسع تلك القضايا أو المواقف أو الاحداث التي تتناولها الرواية أو القصة فيكون من تمازج ذلك أن يبعث في اعماق القارئ عالما من الحيرة والغموض

محببا الى نفس القارئ بالاضافة الى سحر الكلمة الشعرية وتركيب الجملة وسيكون بالتالي للقصة مستويان.

(1) المستوى البسيط الذي يقوم على الاحداث او غرابية الشخصيات وهو يجتذب محدودي الثقافة.

(2) ومستوى ذهني فكري يجتذب ذوي الثقافة العميقة مثل القصص الرمزي القديم ومثال ذلك كليلة ودمنة، أو القصص النفسي القديم مثل حي بن يقظان.

الامر الثاني هو أن هناك عالما قصصيا مازالت القصة العربية لم تتجه اليه بقدّم ثابتة وأعني به قصص الخيال العلمي. وقد كنت فيما مضى أرى في مثل هذه القصص مضیعة لوقت القارئ فاعرضت عنها كما أعرضت عنها الأغلبية الساحقة من الكتاب العرب، غير أنه يتقدم العلم وغزو الانسان للفضاء وخروجه عن دائرة كوننا منطلقا في بحثه جادا عن الحياة في كواكب أخرى تبعد عن الكرة الأرضية ملايين الكيلومترات اذاك أخذ هذا العالم الجديد يستأثر بفكري. فشعرت أن قصص الخيال العلمي هي في الحقيقة بحث عن الانسان وصورته في المستقبل المجهول فقد اتسعت دائرة كوننا اذ لم يعد محجودا بحدود كوكبنا الأرضي أن الاحداث لم تعد مرتبطة بما يجري في كوكبنا الأزرق ولم يعد الآخر المرأة أو الرجل أو الشرق أو الغرب فقد يكون هذا الآخر قادما من الفضاء الخارجي من كوكب آخر نحن ذاهبون اليه جادون في البحث عنه. وقد يكون هو أت نحونا وقد نلتقي في الطريق.

يقول الدكتور كارل ساغان في كتابه «الكون» (3) ولماذا يجب أن نكون نحن سكان الكرة الأرضية الموجودين في زاوية منسية من الكون على هذا القدر من الحظ ؟ يبدو لي أن شمة احتمالا أكبر أن يكون الكون زاخرا بالحياة ولكننا نحن البشر لا نعرف شيئا عن ذلك حتى الآن وقد بدأنا نوافي اكتشافاتنا من مسافة ثمانية مليارات سنة ضوئية يصعب كثيرا أن نجد حتى عنقودا أو مجموعة المجرات التي تنتمي اليها مجرتنا المعروفة

(3) الكون ص 23 دكارل ساغان (عالم المعرفة ترجمة نافع ايوب).

بدرب التبانة فما بالك اذا أردنا التفتيش من هذه المسافة الكبيرة
عن الشمس او عن الارض.

الا أن هذا المجال القصصي يحتاج الى ركن هام الى جانب
الثقافة الادبية. هذا الركن هو وجوب توفر ثقافة متينة من العلم
الصحيح لدى الكاتب بما فيها من فيزياء وكيمياء وعلم الفلك
وتكنولوجيا الخ...

ولعلّ هذا من الاسباب التي جعلت هذا القصص لم يزدهر
بعد في عالمنا العربي حيث لم تكتمل اداته عند الاديب ولا أقول
لضيق خياله. إنما على القصة العربية أن تكون في مستوى
التحدي، أن يتسلح كاتبها بالعلم الصحيح وعلم النفس وعلم
الاجتماع لتكتمل أداتهم فاذا أخذت السينما أجود ما كتب الادباء
وحولته الى سيناريو ثم الى أفلام ومسلسلات فلا ضير ولا بأس
على القصة العربية لو استعار كتابها بعض المواضيع التي
اختصت بها السينما الحديثة من خيال علمي ومشاكل نفسية
وخيال غرائبي «Fantastique» فيعيد الى القصة قراءها الذين كادوا
يتوجهون الى الأفلام التلفزية والسينمائية ويهملون القصة
المكتوبة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولن نستطيع اعادة مكانة القصة المكتوبة وقراء القصة الا
اذا بنينا عالما قصصيا جديدا يكون مواكبا لتطور الفكر الانساني
والمحيط العلمي الذي يحاصرنا من كل مكان ويطل علينا كل يوم
بمبتكراته ومكتشفاته المدهشة. من المركبات الفضائية الى
الروبوت الى الغواصات الذرية التي تحطم جليد بحار القطب
الشمالي. والدليل على ذلك ففي امريكا بلاد العلم والسينما
الحديثة، لم تعرف القصة والرواية انحصارا أو تراجعاً. بل كان
عمالقة الرواية والقصة متربعين على عرش الابداع والثروة
المادية أمثال هـ. منغواي روائي البطولات الانسانية وفلكنار -
صاحب صخب الصمت - الكاتب الكشاف عن اغوار النفس
البشرية واسحاق اسيموف صاحب عديد الروايات وقصص الخيال
العلمي.

الى جانبهم كان عمالقة المسرح مثل جان أونويل في الشعر وأرثر ميلر (حكاية بائع متجول) كل هؤلاء كانوا مصدر الهام وإثراء للسينما كما كان للسينما مفعولها الايجابي على أعمالهم اذ حول أشهرها الى عالم الصورة.

وهكذا فقد كان فن القص وتكنولوجيا السينما والتلفزة تتكامل في أمريكا وأوروبا والاتحاد السوفياتي سابقا ولا يتصارعون اذ يجد رجال السينما والتلفزة في عالم القصة والرواية ما يلبي طلباتهم فينقون منه ما يشاؤون دون أن يغمطوا الكاتب حقه بل يزيّدون في رواج انتاجه وإعطاء القصة والرواية حقها.

إنما سيظل سؤال يعذبني اذا اتجهت القصة والرواية العربية الى الخيال العلمي أفلا يكون في هذا الاتجاه بالعمل القصصي هذه الوجهة إهمال لجانِب مهم ينبغي عليه الادب عامة هو الانسان : حياته، وجدانه، قضاياها، من عدل وحرية وكرامة من الجوع والفقر الى الثراء الكافر بالقيم الخ...

فنحن في مجتمعات نشكو ما ذكوت من قضايا وعلى الاخص منها انتفاء الحرية والعدالة وتجذر الفقر والاستغلال. استغلال طبقة لطبقات اخرى وتحت مظلة شعارات براقة تخدم مصالح جماعة دون المجموعة مثل الاقتصاد الحر وأكذوبة العرض والطلب. فليست أنظمتنا رأسمالية ولا اشتراكية انسانية بل هي ليبرالية مجففة.

وهذا هو الاشكال فهل علينا أن نرتبط بالواقعية ونتقوقع على واقعنا وعلى أنفسنا وبذلك قد نعرض القصة المكتوبة الى التلف وتحل محلها التكنولوجيا الجديدة المعتمدة على الصورة. وهنا مجال الحيرة والاختيار. ثم أجدني أطمئن نفسي بأن الخيال العلمي والعالم الغرائبي وعالم العصاب والامراض النفسية ليس بمعزل عن الانسان المعاصر.

ولكنني أفاجأ بما يشبه اللغم الذي يرتج في دماغي فالعالم الغرائبي ليس غريبا علينا تعج به ألف ليلة وليلة وخرافاتنا

وأساطيرنا المربعة من الغول والجن والاشباح فهو قريب منا.

ولكن هل نحن فعلا ننتمي الى العالم المتقدم المعاصر الذي هزت وتيرة الحياة الحادة أعصابه فتشنج وانتشر بينه وباء الامراض النفسية على اختلافها والعصاب بأنواعه ؟ هل نحن بلغنا من العلم بحيث أصبحنا نفكر بمنطق علمي وغمرنا العلم فحملنا الى خيال كما هو الشأن في أمريكا والاتحاد السوفياتي سابقا وأوربا.

أم نحن عالم متخلف نستهلك منتجات العلم ونستمع بمخترعاته ولكن لا ندرك كنهه ولا نعيشه من الداخل. فالروبو الذي يقوم بأعمال في المصانع بدقة تفوق دقة الانسان وهو مبرمج للقيام بتلك الاعمال اين هو في مجتمعنا ؟ المركبات الفضائية نسمع عنها نقرأها في الصحف نراها على الشاشة التلفزية في نشرات الاخبار ولكن أين موقعها في حياتنا.

اذن نحن عمليا يفصلنا مالا يقل عن قرن من العلم عن الأمم الغربية، فكيف نريد لأدبنا أن يكون مثل أدبهم ؟ كيف تكون شواغلنا هي شواغلهم؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فنحن مازلنا نحارب الأمية. مازلنا نريد ترسيخ حب المطالعة وقراءة الانتاج الادبي في نفوس أجيالنا ونشجع على ذلك. وفي الآن نفسه نجد مديري بعض المؤسسات العلمية يرأسلون صاحب مجلة ادبية (قصص) يطالبونه بايقاف اشتراكهم في المجلة.

بل نحن في مجتمع مازلنا نفرق بين البحوث الجامعية والابداع الادبي من قصة ورواية وشعر، ولا نولي الابداع الادبي الا الجانب الهزيل الادنى من قائمة كتب المطالعة التي توفرها وزارة التربية والبحث العلمي وتنصح بها ويتساءل المرء ما هي حاجة تلاميذ الثانوي الى رسائل الدكتوراه أو البحوث الجامعية المتعمقة فلا نجد جوابا !!

بينما الغرب اعتبر القصة والرواية فنا ضروريا لا نقاش أو

جدال في شرعيته. وأخذ يدرس اليات القصة او الميكانيزم للقصة دراسة لمية لا تهتم الا بالناحية الشكلية فيه. أما المضمون فلم يعد للنقاد والدارسين مجال للقول فيه كما كان الشأن في الادب الرومانطقي أو الواقعي أو الرمزي في الدارسين للقرن التاسع عشر كأنهم يرون الكاتب حرا فيما يتناوله من قص أو رواية أو حكاية أو قضايا مهما كان نوعها فليس عليه سلطان في ذلك إنما كل همهم أن يدرسوا ظاهرة الشكل ويحولونها الى معادلة رياضية فمثلا $F \times A : F Y "B" = F \times B : F A = Y$ يحصر وظيفة البطل بل والاسطورة بوصفها كلا في معادلة هي التالية

حرف F يشير الى الوظيفة للبطل «Fonction» (A) رمز للشر
(B) القوة الوظيفية = الخضوع (Y)...

اما رولان بارت فيعرض في مقال له بعنوان مدخل الى التحليل البنيوي للقص الى أعمال الشكلايين فيقول في مجملها:

وإن اختلف الدارسون الشكليون فمنهم من يجعل الجملة هي أصغر مقطع للإبداع. ومنهم من يقسمها الى وظائف ويجعل المقطع أصغر وحدة يبرز الحد لكل علاقة ترابطية بين أجزاء القصة وهكذا ترتفع هذه الوحدات لتجعل من نفسها وحدة واحدة هي مجموع الجمل التي تكون القصة برمتها.

ثم هناك فئة التداخل تشمل كل القرائن «Indices» فهي تصور مكتمل الى حد ما لكنها ضرورية لادراك أو أداء معنى القصة - قرائن طبيعة الاشخاص وهو تعود، فلم تعد العلاقة توزيعية بقدر ما هي تداخلية. بعض القصص وظائفية مثل القصص الشعبي وأخرى ذات دور قرائني واضح مثل الروايات السيكلوجية.

ثم يقترح الان بارت ثلاث مستويات للقصة بعد إدراكه ما أصاب التحليل البنيوي من تضارب أو قصور أو أدوات غير مكتملة لادراك أبعاد القصة على طريقة الشكلايين لذا يقول :

يلزم العديد من التجارب الضرورية قبل التأكد من مستويات وما نقترحه هنا يمثل نظرة مؤقتة مازالت أهميتها تعليمية. هذه التجارب تسمح بتحديد المشاكل وتجميعها دون أن تكون متعارضة مع بعض الدراسات التحليلية التي أجريت.

نقترح أن تميز في العمل القصصي السردى ثلاث مستويات من الوصف.

- (1) مستوى الوظائف، بالمعنى الذي أنجزه بروب وبريمون.
- (2) مستوى الأعمال بالمعنى الذي لدى «فريمانس» عندما يتكلم عن الشخصيات.
- (3) مستوى السرد الذي يقرب من مستوى الخطاب «عند تودوروف» (4).

وهكذا ترون أيها الأخوة حتى مجال البحث مختلف بيننا وذلك لاختلاف البئات والمستويات الثقافية فالقصة والرواية عندهم هي ظاهرة من الظواهر الثقافية الاجتماعية تحول الى معادلة ولا يشك في جذورها وتطورها. وإنما هي قرائن ووظائف ورموز ومستويات. وذلك لأنها ظاهرة حية تتغير وتتطور وجزء من الموروث أو المكتسب من الوعي واللاوعي الجماعي الذي يمثل الكاتب بالتالي فهي ليست في موقف ضعف ولا يخشى عليها من غاشية.

بينما نحن يستوقفنا ويهزنا ويخيفنا هذا الصراع بين الصورة والكلمة المكتوبة ونحن محقون في ذلك حيث تنتشر بيننا الأمية وقلة القراءة أو العزوف عنها الى ما هو أيسر وأسهل وهي المشاهدة. أضف الى ذلك ما تكلفه هذه القراءة من شراء لكتاب قد يثقل محمله على شعوب مثلنا مازالت في صراع مع أبسط مستلزمات الحياة.

ورغم هذه المخاوف والمتناقضات فإننا أرى أن تسلك القصة سبيلا جديدا معتمدة في ذلك على العالم الشعري، وأن تقتحم

(4) مجلة العرب والفكر العلمي سنة 1989 عدد 5.

عولم قصصية جديدة هي عالم الخيال العلمي والغرائبي والقصص النفسي دون إهمال لقضايا الانسان العربي المعاصر السياسية والاقتصادية منها خاصة.

فكما ترون أيها السادة إنني لا أفرض رأيا بل أعرض قضية لها أبعادها في نفس الكاتب القصصي والروائي العربي.

وأقترح مصالحة قد تمهد السبيل الى مجالات جديدة في عالم القص وطرق القصة وهي بالتالي منطلق لجدال استغل فيه هذا الاحتفاء بالعدد المائة لمجلة «قصص» الذي جمع عددا لا بأس به من كتاب القصة والرواية والدارسين لها.

وربما كانت هذه المداخلة حافزا لحوار بناء تخرج منه القصة والرواية العربية بآراء ثرية تشد من أزر هذا الفن وتبني له صرحا مكيئا لعله يبلغ به الأسباب أسباب سماء الفن وذروة الابداع والتجديد والسير بخطى ثابتة لا تهددها المخاوف ولا يجانبها التطور والتوق الى اقتحام مجالات العلم والفن.

محسن بن ضياف

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

1 - مقدمة :

فنون الأدب (وفن القصة القصيرة) كأحد أشكال هذه الفنون، دورا كبيرا في تغيير الواقع الراهن الى واقع أجمل وأمثل. وعلى الرغم من أن هذا التغيير يطرا حينا ويبدو حينا محدودا ونادرا، بصورة مباشرة وعاجلة، على هذا الفرد أو ذاك، إلا أنه - بالتأكيد - تغيير يمثل فئات واسعة وغفيرة من الناس بعد أجل طويل،

تؤدي

ملاحظات أولية
وتطبيقية حول
الأدب القصصي
التونسي المحاصر

ويتوقف هذا الأجل على عوامل عديدة أهمها وأبرزها طبيعة الأدب، ومدى استجابة الناس إليه، ضمن واقع يعيشونه. وفي التأريخ القديم والحديث أدلة لا تحصى على أهمية الأدب بفنونه المختلفة في التغيير الاجتماعي المنشود. وإن كان هذا المقام لا يتسع لنا للأفاضة في تبين هذه الأهمية القصوى، وبيان بعض تلك البراهين عليها، إلا أنه يكفي أن نذكر أن هذه النقلة النوعية التي حصلت للانسان، كان من بين أسبابها المحدودة، وجود أدب فذ : انساني النزعة وثوري الاتجاه، أبدعته عقول عظام، بعد أن تمكنت منه، وبعد أن استوعبت واقعها بكل تفاصيل موجوداته (أحداثا وظواهر وبشرا)، لدرجة أن عصرنا الراهن يحظى بتسميته، من بين تسميات معدودة، بـ(عصر الرواية)، التي هي - في أبعد علاقة لها مع القصة القصيرة - بمثابة الأم لها، ان لم نستذكر العلاقة القريبة والوثيقة التي تربطهما معا، وهي تصنيف الرواية على أنها مجرد قصة طويلة، وتصنيف القصة على أنها رواية قصيرة. ويكفي أن أذكر دليلا ملموسا على أهمية فنون الأدب (وفن القصة القصيرة منه هي المقصودة هنا) ، هو أن استفادتي من مطالعة المراجع القصصية التونسية : التي أهداني إياها مشكوراً الأديب الكبير محمد العروسي المطوي والتي بصدد كتابة ملاحظاتي الأولية عليها في هذا المقال النقدي الموجز - قد لا تقل عن استفادتي من زيارة

هذا القطر العربي التي استغرقت ثلاثة أسابيع. فهي قصص مكنّني - على سبيل المثال الواحد فقط. من معرفة شعور متجذر يراود المواطن العربي في هذا القطر؛ أخفته عني مشاغله المتشابهة والمعقدة، في خضم الحياة اليومية، هو شعوره بالانتماء العربي روحا وجوهرا قبل أن يكون شكلا ومظهرا، ما دام كتاب هذه القصص هم خير من يعبر عن هموم هذا المواطن وطموحه في الحياة المرة الكريمة.

2 - خصائص القصص التونسية :

وإذا كان نقد الأدب كجنس أدبي هام معنيا بهذا التقييم، تقييم ما لهذا الأدب من مزايا وما عليه من مآخذ، ومعنيا أيضا بالتقويم، تقوم تلك المآخذ في النص الأدبي باتجاه المزايا، وتعزيز تلك المزايا فيه بدرجة أشد وصورة أوسع بغية إثرائه، فالأجدر بنا (أولا) تناول المزايا التي حفلت بها القصص التونسية المعاصرة، ثم تناول (ثانيا) المآخذ التي تؤاخذ عليها فيما بعد، ولعل في مقدمة هذه المزايا هي الآتي :

1- 1 - الخيال القصصي : الخلاق الذي يجعل الرمز في النص الأدبي قريبا في دلالته إلى أحداث الواقع المعيش، لدرجة يخلط الرمز والواقع ويصبحان شيئا واحدا، فيقدم لنا القصص الأدبي - من خلال الرمز - أحداثا عرفناها ماضيا أو حاضرا وأحداثا مستقبلا دون ألغاز يضيع في متاهاتها المتلقي باحثا عن حل لطلاسمها دون جدوى. ففي القصة الموسومة بـ (رحلة الضياع) (1) يستهلها الكاتب بقوله : «بكت زوجة (آرم مترونق) لما عرفت أننا قد أخطأنا، وأن المركبة التي تقلنا قد تاهت، ونزلت على كوكب مجهول» فقالت له متتهدة : إن أرضنا الحبيبة يا (آرم) قد انقطعنا عنها...، فهما إذن في كوكب غير كوكبنا الأرضي، ويذكر لنا القاص في خلال هذا النص تسميات عديدة من مثل : (غابة البؤس، نهر الغرباء، شجرة القوة، مقبرة العهد الجديد، غرفة الأحلام الأرضية، بئر المطامع...) وغيرها. وهي تسميات يرمز بها أو يثير من خلالها إلى أحداث عرفناها في عالمنا الأرضي في فترات من تاريخه الطويل قديما وحديثا، تتعلق بالظلم الذي حاق بالإنسان، وبالعذاب الشديد المسلط على الظالم. لقد قال لنا القاص الشيء الكثير من خلال هذه التسميات : الرموز، لالتصاقها الكبير بواقع خبراته عن كذب، على الرغم من أن هذا الواقع لا نعرف فيه نهرا يجري باسم «نهر الغرباء» ، أو غابة تظل بعض بقاعه باسم «غابة البؤس». فلم تجنح رموز النص الأدبي بعيدا في

الإشارة الى الواقع الذي يعيشه الإنسان، ولم يكن الخيال القصصي عائقا على فهم هذا الواقع وسبر غوره بغية تغييره. كان الرمز الذي يبدعه الخيال والواقع شيئا واحدا، الأمر الذي يجعل النص الأدبي أقرب الى التغيير من سواء. وأذكر للقارئ فيما يلي مقتطفات موجزة من هذا النص، لتفيده في بيان مانود توضيحه، من اقتراب الرمز من الواقع في الخيال القصصي الخلاق : «قال الشيخ ببطة واشفاق :

- هل دخلتم غابة البؤس ؟

قلنا له مستفسرين :

- وما غاية البؤس ؟

قال بحزن :

- هي تلك التي يوجد على أشجارها رؤوس معلقة.

... اقتربنا من الشجرة بدافع البحث عن الأكل، ودرنا حولها نحلم بالشبع من ذلك الثمر الضخم، ورفعنا أنظارنا الى أعوادها فراينا رؤوسا مقطوعة من الرقاب تتدلى الأسنن، وهي معلقة في الأعواد. والموت يطل من وراء الأسنان ليحيينا بابتسامة موشحة .. امتدت الأسنة وطالت عندما وقفنا تحت الشجرة، وتدلّت تجاهنا كأنها تريد أن تقلعنا ... عَقَبَ الشيخ على كلامهما قائلا :

- كلّ رأس من الرؤوس المقطوعة يبقى على عوده ليستنزل اللعنة على قاطعه.

(ثمّ ضرب الشيخ ناصيته كمن تذكر شيئا وأشار علينا باتباعه. حاد قليلا عن الطريق، وقصد شجرة بدت عليها أوراق كثيرة حمراء، وقف بقربها، وأشار إليها متحدثا :

- هذه (شجرة القوة) كلوا من أوراقها فسيزول عنكم التعب، وتستطيعون التنقل بأقدام أرسخ من الجبال، لأنكم ستمسكون ناصية الألفه ..

- اياك أن تاكل أكثر من عشر أوراق، لأن القوة يسبقها
الغور وينميها الخيلاء

(و) قلت في اندفاع الماسك بخيط أمل :

- ألك ما تشير به علينا ياشيخ ؟

تكلم بهدوء مشيرا بيده الى الامام:

- عندما تصلون نهاية هذا الطريق ستجدون نهرا كبيرا
يسلك بين جبلين يدعى (نهر الغرباء) تطهروا بمائه، فستعرفون
بعد ذلك كل شيء عن هذا العالم، وتأمناوا على أنفسكم من البشر
عندما تسيرون في مناكبه، وبماكانكم - بعد التطهر - أن تعرفوا
أنفسكم وتعرفوا حياتكم ومصيركم ...

وصلنا نهر الغرباء قبل المغيب، فوجدنا النهر عظيما ينحدر
بين جبلين قوسين كحاجب الحسناء، وينبع من جبل ثالث ماء يبعد
عن آخرين قليلا.

قال لي (أزم) :

- علينا بالوقوف على المنبج قبل الشهور في مياه النهر.

سرنا حيث يخرج الماء فلاحت عين كبيرة في سفح الجبل، لم
تكن كالعيون التي ألفناها بل كانت عينا آدمية كبيرة ملتصقة في
جنب الجبل ترشح دموعا باستمرار، وقد جذبتنا بأهدابها السوداء
ولونها الأزرق المشوب بخضرة. ودموعها المنهمرة تنساقط في
مصب النهر فتزيد في هيجانه وزادتنا شعورا بالمأساة عندما
رأينا دموعها تتكاثر باستمرار ونحن نحقق فيها ... (الخ).

(ثم) في الساحة الواسعة ناس كثيرون يستحمون في برك من الدماء
ومن جملة المستحمين زعماء نعرفهم جيدا، كان من بينهم (نيرون) و(جنكيز).
بدا كلاهما غارقا الى الرقبة في بركة من الدماء ... كان (جنكيز) قد أخذته نشوة
السباحة في بركة الدماء، فشرع يغرق الدماء بحفنته ويزرعها عن اليمين وعن
الשמال، ويسقي بها الأرض من الامام ومن الخلف. وأعجب (نيرون) باللعب
فضحك ضحكة عريضة وشرع بدوره يغرق الدماء بحفنته ويزرعها على الأرض

... وعلى بعد خطوات من (نيرون) و(جنكيز) وقف الشيخ (هوشي منه) بلحيته الطويلة وخياله القصير، وفي عينيه نظرة شاردة، ومن وجهه المغضن يطل ألم عميق وحزن أسود، فيصطفق بيديه من حين لآخر في أسف، وقد تأخذ غمرة الحزن فينحني لياخذ حفنة من التراب ليذروها فوق الدماء المزروعة، ثم يضمضم قائلاً :

- لقد أفسد الطفيان عالمنا الأرضي، وبرغم ذلك علينا أن نقاوم ... الخ.

وعلى الرغم من ذكر هذه العبارات المتفرقة والواردة في النص الأدبي فإنها لا يمكن أن تغني، وبأية حال من الأحوال، عن قراءة هذا النص، لمعرفة تلازم الرموز بأحداث الواقع المعيش وظواهره وبشره، تلازماً وثيقاً، يحد من جنوح الخيال القصصي الى فضاءات من الألفاظ والأحاجي.

1-2 - ثراء المضامين الاجتماعية : ولعل من المزايا للنظر في

الأدب القصصي التونسي المعاصر هو الثراء بالمضامين الاجتماعية الهادفة التي يحفل بها هذا الأدب، لدرجة يندر معها وجود قصة قصيرة تخلو من موضوع ما يعالج حالة إنسانية أو ظاهرة اجتماعية، وعلى أساس هذه المزية الملاحظة فيه أستطيع التأكيد - من دون حذر - أن التلذذ الاجتماعي اللاحق الذي سيحوزه هذا القطار العربي، سيكون من بين أسبابه المحدودة والفعالة وجود مثل هذا الأدب الانساني النزعة والثوري الاتجاه الذي ينشد الحياة الحرة والكرامة للإنسان، فلقد أفسح هذا الأدب في توضيح التفاوت القائم بين الأغنياء والفقراء، بين الطبقة الثرية المستغلة (يكسر العين) والطبقة المعدمة المستغلة (يفتح العين)، وبين الترف الفاض عن الحاجة واليؤس المدقع المشين، بين الذي يأكل ويشبع وبين الذي يزرع ويجوع. وما نجم عن هذا التفاوت الصارخ من معطيات هي عبارة عن مآسي اكتنفت محيط العائلة والأسرة والمجتمع، والعلاقات التي تربط بين أفرادها ضمن هذه التكوينات الاجتماعية، من مثل : الزواج غير المتكافئ، والقيانة الزوجية، والهجرة الى خارج الوطن، والولاء للأجنبي، والوعي المتدنّي، وسواها كثير. حيث أفاض هذا الأدب بوصف هذه المآسي ومعالجتها، مشيراً الى الإيجابيات التي ينبغي اتباعها، ومن ثمّ تعزيزها بدرجة أشد وصورة أشمل، والى السلبيات التي يجب تجاوزها وتحطيمها، أي إنّ هذا الأدب لم يغفل أيضاً دوره التوضيحي في بيان جانبي الحق والباطل، ثمّ الانتصار لجانب الحق وحده. هكذا نقرأ : «بدأ حياته في فلاة الأرض وهو طفل

صغير حيث كان يساعد والده في انجاز بعض الاعمال الخفيفة التي تتلاءم وسنه ولا تتطلب أي جهد عضلي، كان الوالد يعمل خماسا لضيعة هذا المالك أو ذاك زمنا قد يقصر أو يطول حسب الظروف. لكنه ما كان ليقل عن الحول، وهي المدة الجاري بها العرف. وقد حال وضع الأسرة البائس بين زهران والدراسة، فلم يقدر له أن يعرف المدرسة إلا من الخارج، لكنه تردد في مطلع طفولته على كتّاب البلدة سنة أو تزيد حيث حفظ ما تيسر له من قصار السور. ولما شب عن الطوق اشتغل خماسا بدوره. ويفارق والده الحياة فجأة تاركا له تحمل اعباء الأسرة من بعده، وهو ما يزال في غضارة الشباب. وبصبر الرجال يتقبل المسؤولية الثقيلة التي ألقتها الأيام على كاهله. وأمام جشع الملاك وخشونة طباعهم لم يكن يطيل البقاء مع أحدهم أكثر من عام لما جبل عليه من أنفة وعزة نفس. كان يكره الصيف والغبن، ويرفض الاهانة. وكثيرا ما كان يثور على تلك العلاقة الشاذة غير المتكافئة بين الأجير ومالك الأرض لكنه كان كمن يصرخ في فراغ ... كان عمله ضروبا من الأشغال الشاقة نظرا لما يتطلبه من جهد عضلي متواصل متمثلا في عزق الأرض وإقامة الطنوف والحواجر لحفظ المياه، وفي حفر السواقي وتعميدها بالتنظيف والإصلاح من حين لآخر. وفي تهئية الأحواض وتسميدها وزرعها وسقيتها بصورة دورية منتظمة، وفي شذب الأشجار واقتلاع مازاد منها على الحاجة أو لم يعد صالحا للبقاء، وفي تنقية الأرض من الكشائش الضارة، وفي جني الثمار وحملها الى السوق أو الى المخازن وما الى ذلك. كان زهران يشقى من استغلال أصحاب الضياع وتسلطهم، ومن قسوة العمل وضعف مردوده، ولكن ما حيلته، البلدة صغيرة والخماسة هي العمل الوحيد المتوفر بها تقريبا، وماذا يمكن أن يوجد في الواحة من الأعمال غير فلاحية الأرض ؟ وتصاب أمه بمرض عضال يقعدها عن الحركة فيضطر للزواج وهو كاره له لعلمه بما سيجره عليه من تبعات إضافية هو في غنى عنها الخ» (2).

1- 3- التاريخ المرحلة الاحتلال الأجنبي :

لقد حاول الأدب القصصي التونسي المعاصر أن يؤرخ لفترة الاحتلال

الأجنبي لبلاده، وما تخللها من اضطهاد وقتل واستغلال وخيانة، ثم انتفاضات شعبية عارمة، توجت بنيل الاستقلال من عبودية الأجنبي الطامع في خيرات البلاد. والنضال الشعبي الباسل - الذي يصفه هذا الأدب القصصي - يؤكد خير تأكيد على انتماء هذا الشعب لوطنه وعروبتة. لنقرأ (مثلاً) ما يلي : «ويتقدم منه أحمد ويقف في مواجهته وبعد أن يطمئنه ويهون عليه الأمر يخبره بأنهم قد جاءوا لقتل المعمر ويمون الذي طفى وتجرّ وتجاوز في صلفه وظلمه كلّ العدود، لم يكفه أن ينتزع من الأهالي أرضهم قسراً فيكرههم على العمل فيها أجراً يمارس عليهم أبشع ألوان القهر والاذلال لا أحد يمنعه أو يقف في وجهه، ويصمت أحمد لحظة ثم يعود إلى القول مخاطباً الشيخ الذي مازال مقتعداً الأرض ينقل الطرف كالأبله بين الجماعة وبين العيادي الذي كان ملثماً :

- وقد أتينا بصفة خاصة يا شيخ لنطلب منك أن تكف عن إيذاء مواطنيك وأن تقلع عن خيانة وطنك وسنمنحك مهلة لنرى إلى ماذا سينتهي إليه أمرك ومتى ثبت لدينا أنك لم تتغير وأنت مازلت على ضلالك القديم فلا تلومن إلا نفسك بعد ذلك ولن تقدّر أية قوة في الأرض أن تمنعنا من الوصول إليك ومن أنزال العقاب بك، هل وعيت قولتي يا شيخ ؟

- نعم .. نعم سأفعل كلّ ما تأمرون به ... الخ ، (4).

3-ثنائية الشكل والمضمون في القصة :

من الواضح أن أيامن فنون الأدب، والقصة القصيرة، كأحد هذه الفنون، تتمتع بمواصفات وتستلزم شروطاً، هما مواصفات وشروط الصنعة الأدبية، التي تميزه عن أي فن أدبي آخر. فالقصة القصيرة كفن أدبي هي ليست المقالة الأدبية كفن أدبي ثان. أي إنّ الشروط التي تلزم القصة القصيرة ويجب أن تتوفر فيها هي غير الشروط التي تلزم المقالة الأدبية وينبغي أن تتقيّد بها. فالمقالة الأدبية تتميز بأسلوبها المباشر الصريح في معالجة موضوعها، في حين أن القصة القصيرة تتناول موضوعها بصورة ضمنية وغير مباشرة. صحيح أنّ الأدب هو عبارة عن وعظ، لكنه غير مباشر، يكتفي بالدلالة، دلالة هذا الرمز أو دلالة ذلك الحدث أو تلك الظاهرة أو الحالة، كما يكتفي بالإشارة العابرة أو

الإشارة الموجبة : وعلى القارئ بعد ذلك - وليس الكاتب - الاستنتاج واستخلاص الدرس. ولا يزيد في هذا المقام التذكير كثيرا بصعوبة كتابة القصة القصيرة كفن أدبي يختلف - كل الاختلاف - عن الحكاية العابرة أو الحديث الوصفي المباشر، تلك الصعوبة التي قد تنجم عن قصر هذا النص الأدبي الذي يراد له أن يستوعب شروطا معينة خاصة به ضمن هذا القصر، وقد تنجم عن أمور أخرى أيضا، إن شكل القصة القصيرة، المتداخل مع المضمون - تداخلا وثيقا - لا يمكن فصله أبدا عنه، إلا لأغراض الدراسة النظرية فحسب، هو العلامة الفارقة التي تميزه عن شكل فن أدبي سواء، وهو بناء خاص يكاد يكون كل الصعوبة التي تواجه الأديب القاص، إذا علمنا أن مضامين القصص هي معروفة مشاعة عند جميع الناس، من خلال مجرى الحياة اليومية لهم، الذي يزرع كثيرا بها. فليس من المهم فقط أن يعرف القاص المجتمع الذي يحياه بأشياءه وناسه وأحداثه وظواهره ومختلف حالاته، وإنما الأهم هو كيفية توظيف هذه المعرفة بأشكال قصصية تمنح الانتاج الفكري صفة الفن القصصي، وإلا لأصبح كل الناس أدباء قصاصين. وفي هذا المجال أجدني أوافق - تمام الموافقة - ما يقوله الناقد حسني سيد لبیب من «إنه من الظلم أن نسمي كل ما هو معروض علينا قصصا» ومن الإنصاف، للأبداع الأدبي، شعرا كان أو قصة، أن تقتصر الدراسات الأدبية والنقدية على كل عمل أدبي متميز...» (5) والقص بالأسلوب المباشر الصريح يكاد يكون - لأشد الأسف - من نصيب معظم النصوص القصصية التونسية المعاصرة، وهو مأخذ بارز يمكن ملاحظته بكل يسر، وناهيك تخلل هذا الأسلوب - في بعض القصص - الركافة في الصياغة، فعلى سبيل المثال الأول نقرأ الآتي : « كان ياماكان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان رجل لا ينام الليل ولا النهار يقضي يومه في العمل، ويمضي ليله في التفكير في ما فعل، وما سيفعل ، وما قرر انجازه ومالم ينتجزه وما شرع فيه من عمل ولم يتممه وما .. وما .. أما آخر الليل فإنه يجهد فيه نفسه كي ينام فلا يستطيع. ربما لأنه ينتظر طلوع الصباح كي يشرع في أعماله الجديدة أكثر مما يفكر في إراحة جسده، المهم في كل هذا أن الرجل اعتاد هذه الحالة لأنها لازمته عن طيب خاطر في البداية لكنها سرعان ما أقلقته لأنه فقد النشاط الذي كان يحركه ...» (6) وعلى سبيل المثال الثاني أيضا نقرأ ما يلي : « استفاقت زينب

يوما على زغرودة النسوة ... إنه فجر الحرية ... انتفضت من فراشها منفضة الشعر منتفخة الأجنان، وصعدت الدرجات المؤدية الى السطح .. نزلت مهولة وفتحت زر المذياع .. الأناشيد الوطنية تملأ قلبها بالسعادة، انه يوم أغر، يوم استقلال، يوم سجله الشهداء على صفحات التاريخ بدمائهم. اندفعت نحو الفارج، وجدت الناس صفارا وكبارا نساء ورجالا تهزهم فرحة هارمة .. كلهم يهتفون، خرقت الزحام في خفة وسرعة وأسلمت خطواتها للطريق المؤدية إلى مقبرة القرية .. جرها احساس غامض الى زيارة أبيها. جلست على حافة القبر .. قرأت الفاتحة، ثم خاطبت أباهما... (7)

3-1-1 - مأخذ القصة التونسية :

3-1-1-1 - سوء توارد الأحداث :

ومن المأخذ الملاحظة في هذا الأدب القصصي التي تؤخذ عليه هي سوء توارد العواد في القصة، لدرجة ان القارئ قد يسمع لهاث الكاتب المتواصل السريع في أن ينهي قصته بأقصر فترة زمنية ممكنة، وكان هذه القصة هي بمثابة للحكاية العابرة التي يرويها المتحدث الكاتب لمحدثه القارئ. فقد يضطر الأديب القاص - اضطرارا لا مبرر له - الى سرد قصصه يتعلق بشخص قصته الرئيسية باستخدام عبارات تلخص حالتها الراهنة من مثل ذهب الى المكان الفلاني، والتقى بعلان من الناس، ورجع الى منزله، ثم أغلق الباب عليه، ونام نوما متوصلا .. من أجل أن تكون هذه الحالة من الأحداث كحلقة وصل تربط الحالة الأولى التي أوضحها لنا القاص بأسلوب أدبي مقبول مع الحالة الثانية لهذه الشخصية الأدبية، التي عليه واجب بيانها بذات الأسلوب الأدبي أيضا. والقاص لا يدري أنه بهذا العمل الذي يعمد إليه طائعا مختارا، وتصنع مثل هذه الحلقة : الرباط، إنما هو متصدع الجوانب، وكان يكفي - لو أدرك ذلك - أن تستقبل شخصيته الأدبية الحالة الثانية من دون إضطراره الى مثل هذا السرد، الذي أراد به أن يخبرنا عن حال شخصيته في كل فترة زمنية تحياها، وذلك من خلال استخدام أية أداة من أدوات الربط، أو أية كلمات محدودة تقطع السبل عن تصدع البناء القصصي. لنقرأ (أولا) : «وألقت بنفسها داخل السيارة التي انطلقت بها بعيدا ووقفت أتبعها بنظري الى ان اختفت في الزحام. ولم أتم تلك الليلة وأنتظرتها في الدد حتى الضمى لكنها

لم تحضر. وخطر ببالي أن اذهب للسؤال عنها في شقتها لكنني أحجمت عن ذلك في النهاية وقد امتلأت نفسي غما وكعدا ورأيت أن اغير المكان فذهبت الى فرنكلورت فلقضيت بها أياماً ثم عدت الى فاز بادن لأقيم بها أياماً أخرى، وذات صباح حملت أمتعتي وغادرت المدينة الجميلة ...» (8) ولنقرأ (ثانياً) أيضاً : « كان شعور بالثورة قد أخذ يعتدل داخله، الى أين يمضي ؟ من الأفضل أن يشغل نفسه بمشاهدة شريط سينمائي تنقل بين عدد من دور العرض انتقل شريطاً هندياً لاقى نجاحاً كبيراً وشهرة عالمية واسعة، كان شريطاً ممتعاً ومسلياً حقاً، إثر انتهاء العرض ذهب لتناول طعام العشاء، ثم ركب القطار الى الضاحية حيث قضى ليلة شبيهة بالليلة الماضية. في الصباح عاد الى العاصمة حاملاً حقيبتة الصغيرة. لقد عزم على الرجوع الى البلد ذلك اليوم حتى وإن هو لم يتمكن من مقابلة رئيس الشركة اشترى صحيفة وعلبة تبغ وقصد المقهى لتناول قهوته المعتادة، ثم امتطى العافلة الى مقر الشركة .. كالعادة استقبله أحد الحجاب وقاده الى مكتب الأنسة دينا التي رحبت به ودعته الى الجلس وطفقت تتحدث إليه عن مشقة الحياة بالعاصمة ...» (9).

3 - 2 - 1 الوصف دون التحليل <http://Ar.chilil>

يغلب على الأدب القصصي التونسي المعاصر الوصف، وصف الحالة الإنسانية أو الظاهرة الاجتماعية أو الحدث العابر من دون أن يغلب عليه التحليل، تحليل هذه الحالة أو الظاهرة أو الحدث. وتنتج هذه الغلبة - كما أرى - بفعل صعوبة التحليل إزاء الوصف، إذ إن تمكن الأديب القاص من التحليل ليس بالأمر الهين المستطاع، فهذه الأمكانية لا تتطلب منه معاشة المجتمع الذي يحيا فيه القاص، هذا المجتمع الحافل بشتى الظواهر والأحداث والحالات فحسب، وإنما تتطلب منه أيضاً - وبدرجة أهم - دراسات واسعة وعميقة في مختلف أنواع المعرفة، المعرفة المتعلقة بالعلوم الاجتماعية، كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والسياسة وغيرها. لكي تعين القاص على معرفة الأسباب والنتائج لأية ظاهرة أو حالة أو حدث يتصداه ويعالجه، ومن ثم يعمد إلى إيضاحه، ليس إيضاحاً تقريرياً مباشراً، كما هو شأن الباحث العلمي في هذا المجال، وإنما إيضاحاً ضمنياً وموحياً، لمنح العمل صفة الفن وليس صفة

البحث، وهو إضاح يمكن القارئ من الاستنباح، وينال لديه القبول والاختناع، من دون أمر من الكاتب أو موعظته المباشرة، إن الأدب التحليلي هو أدب شامل وعميق، وهو سهل وممتنع، سهل في فهمه واستساغته، وممتنع أو صعب في صناعته، وهو الأدب الفذ الذي يضطلع بهمة تغيير المجتمع وإنسانه نحو الأحوال الأرقى والأسمى، وهو على خلاف الأدب الوصفي، هذا الأدب الضيق المحدود، الذي ينال بعض رضى عابر عند متلقيه، من دون أن يسبر أعماق نفسه ويزرع ويحذر قناعاته الكاملة لديه، لنقرأ (أولاً) كدليل على هذه الملاحظة : «وشاءت الظروف فتقدم الى أهلي وطلب يدي، كان يصحبه خاله فقط الذي يحبه ويفهمه ويعطف عليه .. تقدم رائعاً.. وتكلم لائقاً.. فكان فوق المستوى .. وكان له ما أراد وأردت .. وممرت شهور الخطبة واحتفال زواج بسيط هادئ ومرح على الأهل والأصدقاء والأجوار دون ضجيج، وتوج الطم بالحقيقة ولكنني عدت أحلم - إذ لم يكن في خيالي أبداً بأنني أعيش الحقيقة، وذبت في فراش من سكر .. وكالسكر .. وكقطعة من سكر ... ؟ وقد كان ولوعاً بحب التفاخر والمظاهر والفخفة المزيفة !» ولنقرأ (ثانياً) كدليل عليها أيضاً : «فارس الزمان ليس واحداً من أبناء قريتنا فقط بل هو رمز لها. فهو شخص في عمر الربيع. ولم نر أنه شاخ أو تقدم من تلك السن بيوم واحد فشيوخ القرية يعرفونه وهو في تلك السن. والأطفال أيضاً يعرفونه وهو كذلك. بل حتى الأطفال الذين أصبحوا شيوخاً الآن كانوا يعرفونه كذلك. والحقيقة أننا لم نلاحظ ذلك من قبل ولا بحثنا عن سببه، لكنني الآن تذكرته وأست أدري الى ماذا يرجع سبب ذلك. المهم أننا عرفنا فارس الزمان هكذا ...» (11)

3 - 1 - 3 - سلامة اللغة :

العلاقة بين فنون الأدب المختلفة واللغة علاقة وثيقة جداً، لدرجة أن مطالعة الأدب القصصي أو المسرحي أو الشعري .. تعتبر إحدى وسائل معرفة اللغة، قواعد نحوية ورسوماً املائية. وبذلك فإن تمكن الكاتب الأديب من اللغة يلزمه بهذه الضرورة باكثير مما يلزم الكاتب غير الأديب، وعلى الرغم من أن الكاتب الأديب يمر بمراحل متصاعدة نحو تحقيق هذه الامكانية اللغوية التي تكاد تشارف في نهايتها على التمام، إلا إنه ملزم أيضاً بمعرفة أولية في نحو واملاء اللغة التي يكتب فيها أدبه، عند كل مرحلة من تلك المراحل التي يمر بها. معنى هذا أن المطلوب من الكاتب الأديب في بداية نشأته الأدبية الاحاطة العامة بلفته الكتابية : حين يصعب عليه - ضمن هذه المرحلة - الاحاطة الشاملة والعميقة بها، من أجل أن لا يعلم القراء - من محدودي الثقافة اللغوية - الذين

يكتب لهم وعنهم الخطأ في المبادئ الأولى للغة، ولا نريد أن يتصيد الأخطاء اللغوية التي هي من نصيب تلاميذ المرحلة الثانوية أو دونها والتي صادفتنا هنا أو هناك ، في المجاميع القصصية التي عكفنا على اقراءتها، كدليل تطبيقي على هذه الملاحظة الأولى، لأن الأمل كبير بلا أدنى شك على تجاوز كتابها هذه الهنات اللغوية، عند مواصلة عطاءاتهم الإبداعية في مجال الأدب القصصي، التي تلزمهم - هذه المواصلة - الدراسة الجادة للتراث الأدبي واللغوي على حد سواء. ومع ذلك فقد وردت بعض هذه الأخطاء اللغوية في نماذج استشهدنا بها في هذا المقال النقدي، وتركتها كما جاءت ضمن سياقها في النصوص من دون تصحيح، حيث بإمكان الدارس الفطن الانتباه إليها. وفي ختام هذا المقال الموجز أود القول (أولا) : إن النصوص القصصية التي استشهدنا بتقديم المزايا المذكورة أعلاه منها لا يعني أنها نصوص خلت من المآخذ عليها، كذلك أيضا فإن النصوص القصصية التي استشهدنا بتقديم المآخذ الواردة أعلاه منها لا يعني أنها نصوص خلت من المزايا فيها. بدليل اننا استشهدنا بتقديم إحدى هذه المزايا حرة، وإحدى هذه المآخذ مرة ثانية، في مجموعة قصصية واحدة، بإمكان القارئ التأكد منها. حيث إن الإحاطة الشاملة والعميقة، بكل ما ورد في نصوص هذه المجاميع القصصية من مزايا ومآخذ ، لا يمكن أن تكون - بأية حال من الأحوال - من نصيب مقال موجز كهذا المقال. كما أود القول (ثانيا) : إن تعاملنا مع هذا الكم الكبير من القصص التونسية المعاصرة التي لم نتشرف - للأسف الشديد - بمعرفة شخصيات كتابها الأفاضل، يشبه تماما تعامل البشير العربي مع زميله وصديقه الأديب محمد العروسي المطوي في حفل تكريمه المقام في العام (1986)، والذي جاء هذا التعامل بالصورة التالية : « في حديثك عن الصديق ضيق ... لأنك ان تحدثت للناس بكلماته، قالوا : هذه مناجاة عواطف، والنتيجة الحتمية لمثل هذه المناجاة : كفر بالفكر. وإهدار للقيم وامتداد للأساليب العتيقة التي كان يسود فيها المدح والتقريظ، على النقد والتقويم الحق. وإن أنت تحدثت بما في صديقك من نقائص، قال الناس : هذا تنكر للوفاء، وتسقط للعورات، وجل من لا عيب له. أما إذا أنت تحدثت ببعض ما في الصديق من مظاهر الكمال: وعرضت - من جهة أخرى - فإنك ستنتهم بالجمع بين السيئتين ، وبإدعاء (الاعتدال) ولا اعتدال. وإزاء كل هذا، لم يبق إلا أن يرضى المتكلم ضميره، ويعلن ما يعتقده الحق وليقل من شاء ما يشاء، لأن إرضاء الناس غاية لا تدرك (... وهذا هو شأننا أيضا (x) .

الهوامش :

- (1) الصمت والمرايا : نور الدين بلن يلقاسم. منشورات قصص (10). الطبعة الأولى 1989. أنظر قصة (رحلة الضياع)، ص (47 - 96).
- (2) الخماس هو العامل الفلاحي الذي يعمل بالمناب له خمس ما تغله الأرض وما تثمره الأشجار، وهو قانون غير ثابت وقابل للزيادة والنقصان، كما إنه يختلف في جهة عنه في جهة ثانية. ورد هذا التعريف في المجموعة القصصية الموسومة بـ(عطاء حتى الموت)، للكاتب محمد الخموسي الحناشي. منشورات قصص (12). الطبعة الأولى - 1991. أنظر : ص (42).
- (3) نفس المرجع المذكور سابقا. أنظر: قصة (الأجير)، ص (42 - 49).
- (4) نفس المرجع المذكور سابقا. أنظر : قصة (الشيخ والهراية)، ص (5 - 16).
- (5) مجلة (قصص). العدد (98 الصادر في العام (1992) إصدار نادي القصة - تونس، أنظر مقالة الناقد حسين سيد لبيب الموسومة بـ(لماذا تموت العصافير)، ص (87 - 96).
- (6) فارس الظلام : يوسف عبد العاطي، منشورات قصص (6) / 1985 أنظر : قصة (غالب النوم)، ص (14 - 24).
- (7) لماذا تموت العصافير : ريم العيساوي . منشورات قصص (9). 1988.
- (8) في الزنزانة : محمد الخموسي الحناشي. الشركة التونسية للفنون الرسم. الطبعة الأولى - 1987. أنظر : قصة (رحلة وراء السراب)، ص (62 - 81).
- (9) عطاء حتى الموت : محمد الخموسي الحناشي. منشورات قصص (12). الطبعة الأولى - 1991. أنظر : قصة (الكابوس)، ص (65 - 79).
- (10) أنا الدينا : سنيا يوسف. منشورات قصص (16) . الطبعة الأولى - 1992. أنظر : قصة (لست وحدك)، ص (82 - 105).

(11) ويعد ... : يوسف عبد العاطي. منشورات مجلة قصص (14). الطبعة الأولى 1991.
أنظر : قصة (العرس)، ص (97 - 102).

(12) محمد العروسي المطوي : دراسات وشهادات. اعداد مجموعة من الأساتذة. دار الغرب
الاسلامي - بيروت. 10 الطبعة الأولى - 1992. أنظر ص 195.

(x) يقطع النظر عما ورد من أحكام على كتاب القصص المستشهد بها أو عليهم فإنّ الحكم بذلك
على كامل الأدب التونسي لا يعتبر موضوعيا مع شكرنا للأخ قاسم رسم محمد - قسم
التحرير.



للروائي والقاص عبد الرحمان مجيد الربيعي
صدر حديثا في طبعات جديدة :

- خطوط الطول ... خطوط العرض (رواية)

- سر الماء (مختارات قصصية)

- الوكر (رواية)

- أصوات وخطوات (مقالات في القصة العربية)

منشورات دار المعارف - سوسة

وقعت هاته القصة ببازيز منشأ
الوقاييع الغريبة ودار
العجائب وهي أن رجلا من
عائلة كبيرة بتلك العاصمة عريقا
في المجد صاحب كثرة عظيمة
ومعارف ثيرة فارسا شجاعا بارعا
في الرمي والمبارزة. وزاد على هاته
الأوصاف الحميدة التي قلما
اجتمعت في رجل حسن الخلق

من بواير القصة المتجمة في تونس «قصة فيثودور»

والخلق ولم يكن له قبل ذلك أدنى ميل لتعشق النساء رغما عن
كثرة ترده على المحافل والمنزهات وأماكن اللهو التي يجتمع بها
السيدات على اختلاف أجناسهن على المجد والغشي والحسن والبهاء
فاتفق أن وقع نظره ذات ليلة بمسرح «لوبرا» الشهير على امرأة
حسنة الوجه بديعة الشكل فأعجبه كمال جمالها ونضارة وجهها
وترنح قوامها وقد امتلكت بنظرها إليه لبّه وأوقعت في شراك
المحبة فما راعه إلا وقد هام بحبها وانبعث يبحث عن صدف
جوهرها ولسان حاله يقول.

تشرّب قلبي حبّها ومشى به
تمشّي حميّا الكاس في جسم شارب
ودبّ هواها في عظامي فشفيها
كما دبّ في المسحوق سمّ العقارب

فاتاحتها الأقدار بعد طول اختبار أنها امرأة إيطالية أتت
من إيطاليا الى العاصمة الفرنسية تحف نور كهربائها حاشية
وخدم وأن لها لقبا شرفيا يدلّ (عند الفرنج) /3/ على طيب

العنصر وشرف المحتدى واسمها «فيدوره» وبعد أن علم من أمرها ذلك طلق يفكر فيما يسلكه للحصول على أمنيته فرأى أن لا مندوحة له عن طريق المكاتبة إذ ربما كانت مطية أمان بما تعرب به من حالة صب صادق الوجدان فأخذ يكاتبها بما قد حلَّ به من الجوى ويستلين قساوة إعراضها عن رهين الهوى فما زادها ذلك إلا نفورا ولم يرد له منها جوابا يسليه من داء الغرام وآلم الهيام. ولما عيل اضطباره وكاد ينكص بخفي حنين لو لا مثابته على خطته وتعلقه بأذيال الأمل أجابته بالمكتوب الآتي :

سيدي

قد مزقت مكتوب الرابع والعشرين من غير أن أعيره /4/ نظرة أو أمنحه التفاتة ولا شك في كونه مثل غيره يتضمن شرح المحبة وفرط الهيام وما أشبه ذلك فاتركني من خاطرك حيث لا سبيل لما ترومه وتهواه فكأنني بك كمن يحاول نسلا عند عنين.

أما فيدوره فما لبثت بعد ذلك إلا قليلا وبارحت باريز راجعة لمسقط رأسها باليرمو وتركت أسير الهوى، ضعيف الأمل والقوى . ولا أدري إذا أن فاز بملاقاتها بباريز أم لا بيد أنه يفهم من المكتوب الذي سيعين بك أنه فاز باجتماعها وهالك مضمونه.

ليتك كنت هنأيا حبيبي فتنظر لهاته الديار الأنيقة والآثار الرومانية العتيقة وتقذ من زناد فكرك الوقاد ما عن لك في هاته البلاد الأثارية علك تزيدني علما بما عندك من المعارف المالية عن تاريخ ووقايح هاته القصور الشاهقة والديار الرائقة.

«فيدوره»

بليرمو في 18 يولييه سنة 1845 (5)

وعندما اتصل بهذا المكتوب طار عقله وطاش لبه وأسرع بالسفر إلى البلاد الموصى إليها يهزه الشوق إلى ملاقة حبيبته وقد قوى أمله بلقيها بما استخرجه من خلال مكتوبها من آيات التعطف ومظاهر التلطف وبعد سبعة عشر يوما وصل باليرمو وتوجه توا لقصرها الكائن بأطراف البلاد يطير به الشوق ويختلج

قلبه سرورا يقرب ملاقاته بمالكة فؤاده وجالبة أرقه وسهاده فسأل عنها أول خادم لقيه وسلم له بطاقة الزيارة فقبله بترحاب وحفاوة وبعد برهة خرجت له بنت ودعته للمكث بغرفة الانتظار بداخل القصر، وما لبث هنالك حتى أتته بنت أخرى وقالت له بكل تلطف واحترام : إن سيدتي ترفع سلامها وتحيتها اليك وترغب منك أن تسمح لها بالذهاب لأمر هام جدا (وفعلا قد توجهت وسترج من عجل) (6) فقال : لماذا لم تسمح لي أن أراها قبل توجيهها على الأقل أو أرافقها ؟ فقالت له : إنها لا تلبث إلا قليلا وتعود. ودعته أن يختار من أقسام القصر ما شاء لنزله، فلم يصغ لقولها ؟ فقالت له : إنها لا تلبث إلا قليلا وتعود. ودعته أن يختار من أقسام القصر ما شاء لنزله، فلم يصغ لقولها وبقي في انتظار ربة الدار الى أن نسخ الليل أية النهار وهو في تلك الاثناء يردف السؤال عنها إثر السؤال وبينما هو كذلك إذ أقبل عليه خادم بيده ورقة فناوله إياها فأسرع الى قراءتها وإذا بها ما يأتي : لا تترقبني أيها الحبيب مساء هذا اليوم ولا يذهب عن فكرك أنني غير مفكرة في شأنك أو أنني أحسن خلاف ما تحسه. وقد أذنت اتباعي أن يتلقوا أوامرك ونواهيك فانت اليوم سيدهم ومولاهم وهذا القصر قصرك.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وبينما هو يفكر في أمره وما سينول إليه حاله في معترك الغرام إذ دخلت عليه الفتاة التي اقتبلته أولا وفتحت له غرفة الانتظار عند قدومه. وقالت له: يا سيدي قد حان وقت الأكل فالمرغوب (7) منكم أن تشرفوا بيت الطعام، فاستيقظ كأنه مغمى عليه وكلل رغبتها بالنجاح فقام ودخل غرفة الأكل. ولكنه جلس على المائدة بدون أن يبدي حراكا أو يتناول ولو نذرا من الطعام. وكيف يتناول الطعام من يهدد حياته الغرام ويزعزع أركان اصطباره. بل أخذت سنة الحيرة والتفكر شأن حملة لواء الهوى الذين ضعفت منهم القوى بمقاساة ألم النوى ثم قدمت له القهوة التي تشبه سوء حظ في السواد. وبعد ذلك رام أن يستريح قليلا في غرفة النوم فسأل الخادم عن الغرفة فدلّه عليها فدخلها وأوى الى الفراش مؤملا أن يذهب النوم شغله الشاغل ويريح باله الكاسف بخروجه من عالم الأذى وهو يقول.

وفضيلة النوم الخروج بأهله : من عالم هو بالاننى مجبول (8) ولكن قد تعاصى النوم عن جفنيه. ومن للعاشقين بالمنام وقد حلف السهاد أن لا يفارق أجفانهم. ولما أعياء التنام ولم ينم رغما عن الأتعاب التي قاساها في السفر الذي هو قطعة من العذاب نزل من الفراش وقلبه يخفق وفؤاده يضطرب فدنا من إحدى النوافذ وفتحها وكان الليل معتكرا والافق حالكا والسكون أخذ مأخذه بحيث لم يسمع الاصراخ الحيوانات وأنين المحبين وزفرات العاشقين، وكانت النافذة مطلة على بستان قصر مالكة حشاشته فيدوره وبينما هو في تلك الحالة يستنشق نسيم الصبا الذي يداوي أسى العشاق ويشبه في الضعف والوهن أجسادهم الضئيلة وأرواحهم العلية ولم يفتر عن التفكير في حبيبته وسبب مغيبها مع وعدها إياه في الحضور في أقرب وقت ويتخيل ذلك الجمال الرائع والحسن الفائق الذي قلما استحوذت عليه امرأة. وكان (9) يتمثل أمام عينيه كأنها تمشي في خلال الشجر الذي تحت النافذة وكأنه يرى عينيها النجلاوين الفاتكة بحبات القلوب وشعرها الكثيف بهذه التسيم فما شعر الأويد وضعت على كتفه فالتفت وإذا بفيديورة صاحبة القصة واقفة وراءه واضعة أصبعها على فمها تشير عليه بالسكوت وكان شديد الاشتياق لمشاهدة طلعتها فلما راها أسرع في تقبيلها فدفعته بلطف ومجاملة وقالت له بصوت غير جهور : عزيزي تأكد أنك تبارح هذا القصر ولا مندوحة لك عن ذلك الساعة فقال لها وكيف تسمح نفسي بفراقك بعد الملاقاة التي عزت منالا وصعبت مراما. فقالت له كأنك (10) لم تدريما هو الخطر الذي سيعرض لك في هاته البلاد التي جر فيها السخط كلاكله فلا بد ان تغادر هذا القصر في هذه الليلة فابى ذلك فأكدت رغبته بالحاج ولم يزل هو يعارضها ويصر على المكث وقد هان عليه ما عسى ان يحل به من الاخطار التي اشارت اليها شأن المحب الصادق فصرح لها بأنه يحفل بمصارعة الاخطار في هواها وأنه يخير الموت الاحمر عن فراقها الأسود وبعد ذلك سالها عن حقيقة الخطر الذي أومت اليه فاجابته ان وجوده بقصرها هو الخطر بعينه فقال لها يا عزيزتي وانيسة روعي فلتكوني على علم انه لا سبيل للانصراف فجلست

على كرسي واخذت تبكي وتنتحب وتقول في نفسها يارب هب لي
كلما جزلا وقولا فصلا اغالبه به عن اصراره واخذت تارة تبكي
وأخرى تتضرع له وتتوسل حتى قال لها انه يرضى بخروجه من
(11) قصرها ولكن لى شرط ان ترافقه فاجابته بعدم امكان ذلك
وتعذره واذ ذاك استراب في صدقها وظن انها تعرفت بغيره ولهذا
السبب تروم صرفه وان كان هو ممنوع من الصرف فقال لها لم
ادر ما علة هذا الالاح والتصميم في ابعادي عن منزلك وما هو
الخطر الذي تزعمينه وقد تعاصى ادراكي على فهم عاقبة اخر امر
هذه المسألة فاجابته انك لا تجهل اني لست ممن يرمى بمثل هاته
الشبهات والنقائص وفاضت عينها بوابل الدمع وتصادت
حسرات الاسف من فؤادها الحزين ولسان حالها يقول انا ان
عرفته بحقيقة الامر اخاف عليه وان حتمته اخاف منه فقال لها
يا سيدتي ان تريدي ان اذهب عن فكري هاته الظنون فما عليك
الا ان ترافقينى الليلة في مبارحة هاته الديار ونذهب سواء الى
فرنسا العزيزة بلاد الحرية ولا يخطر ببالك (12) انه يمسننا هنالك
احد بسوء فقالت له هذا متعذر بل ابعد من اصطياد العنقاء فقال
لها ومفارقتك ابعد من ذلك واصعب وجلس حذوها ولما لم تجد
وسيلة في اقناعه قامت واخذت بيده وقالت له قم ارافك وما
قدر الرحمن سوف يكون فقام واخذ بيدها فوجدها ابرد من الثلج
واكثر ارتعاشا من افئدة عشاقها وذلك من شدة خوفها وهلعها
فخرجوا معا من البيت ونزلا من العلو الى حيث البستان وكان
في القصر بيت مخصوص بالاسلحة قد مرا عليه فاخذ منه سيفا
وتقلده في الحين واعترضتهما خادمة فيدورة ففتحت لهما بابا
غير اعتيادي فسارا في البستان تحت جناح الظلام وهي ماسكة
يده لتدله على الطريق فلم يسيرا الا قليلا حتى وقفت وقالت له
هل سمعت شيئا فقال لا وزادا في المسير وحيث لم يبق لهما الا
شيء قليل للوصول لمخرج (13) البستان اذ سمعا صرخة اطلقت
بيد بارعة في الرمي اصابت الرجل وحده بدون ان يلحق فيدورة
ادنى ضرر رغما عن كثرة الاشجار المتكاثفة وحلك الظلام فسقط
على الأرض وفي الحين اسرع الى افتكاك فيدورة منه التي لم تزل
ماسكة يده شأن المحب المخلص والعاشق المتهالك.

(يتبع)